الفصل الثالث

خلافة عبد الملك بن مروان وسياسته

خلافة عبد الملك بن مروان وسياسته

اين الحجاج ولماذا لم يظهر؟

سيقول القارئ.

- ما بال الحجاج لا يزال بعيدًا عنا؟؟

نريد المعرفة عن حاكم العراقيين، على ضوء الأبحاث الجديدة، والتحقيقات الحرة القائمة على الحقيقة وعلى الحقيقة وحدها، ولكن الحجاج لم يكن ابن ساعتة لقد خلقته حوادث، وكونته فتن، وسوته رجلاً ثورات ومنازعات واختلافات، ضاق الناس بها، وضاقت بهم، فخرج من كل هذا الشخص الغريب الذي يسميه التاريخ الحجاج ابن يوسف، والذي نسميه، صورة مصغرة؛ عن العصر الأموي الأول، وما اضطرب فيه من أحقاد، واصطدم من منافع وانتثر من منازعات، وإذاً فالعصر الذي نحاول التأريخ له، يصح تسميته بعصر الحجاج لأنه غلب عليه وفشا أمره فيه، ولأنه كونه على رأيه، وسواه على رغبته، وسيره وفاقًا لنظام جديد في الحكم لم يكن العرب يألفونه، ولا ينتظرون مثله، وإنما كان جديدًا بكل معنى الكلمة، جديدًا في جدته، حديثًا في جبروته،غريبًا في ألوانه، فخرج العصر والحالة هذه ينتسب إليه، ويلتصق به، وإذا هو عصره وإذا الحجاج شخصيته الكبرى لا غبن ولا استذمام.

ولي عبد الملك بن مروان الخلافة سنة ٦٥ للهجرة (٦٨٥ ميلادية) والبلاد الإسلامية في غاية الاضطراب والتنافر.

كما في الحجاز عبد الله بن الزبير وقد بايعه أهله بالخلافة، وكان العراق يضطرب في فرق ثلاث: زبيرية، بايعوا ابن الزبير ودخلوا في طاعته، وشيعته، تدعو إلى آل البيت، وخوارج، يريدون الأمر شورى بين المسلمين. وأما سورية فكانت تؤيد بني أمية، وكذلك مصر.

وأما بقية البلاد الإسلامية فكانت لا تستقر على حال، وبعضها كان يترقب الفرص ليرى لمن تكون الغلبة والظفر.

من هو عبد الملك بن مروان؟

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ولد سنة ٢٦ للهجرة بالمدينة وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية،وكان يضرب بأمه المثل

في حسـن الخصـال، وجميـل الصفـات، ولمـا شـب كان عاقـلاً حازمًـا أديبًـا لبيبًـا، وكان معـدوداً مـن فقهـاء المدينـة يقـرن بسـعيد ابـن المسـيب، وعـروة ابـن الزبـير.

وقـال الشـعبي: مـا ذكـرت أحـدًا، إلا وجـدت بي الفضـل عليـه، ألا عبـد الملـك فـإني مـا ذكرتـه حديثًـا ألا زادني فيـه، ولا شـعرًا ألا زادني فيـه.

ونشـأ نشـأة علميـة فعـرف بالشـجاعة والخـبرة والعلـم والأدب، وكان قويًـا جبـارًا شـديد البـأس، بعيـد النظـر.

تـرك مـروان ابـن الحكـم لابنـه عبـد الملـك إرثًـا مليئًـا بالاضطـراب والقلاقـل تغمـره الثـورات، وتمزقـه العصبيـات المتناحـرة المتنافـرة المتسـابقة إلى الحكـم، ولكـن عبـد الملـك كان رجـلاً قويًـا، وإداريًـا عظيـمًا، وكان إلى ذلـك رجـلاً لا تزعزعـه الحـوادث، ولا تخيفـه الثـورات، حتـى يـروي (المسـعودي) عنـه أنـه لمـا سـار سـنة ٦٦ للهجـرة عـلى رأس جنـد الشـام إلى العـراق، أتـاه وهـو في الطـرق مقتـل عبيـد اللـه ابن زيـاد، وانهـزام جنـده، وأتاه بنـاء فشـل القائـد الـذي أرسـله والـده لحـرب ابـن الزبـير في الحجـاز، ومقتلـه، ثـم جـاءه خـبر دخـول جنـد الزبـير أرض فلسـطين ولحـاق مصعـب ابـن الزبـير بهـم، ثـم جـاءه أخيراً سـير إمبراطـور الـروم ونزولـه المصيصـة في طريقـه إلى سـورية، ثـم جـاءه أن عبيـد دمشـق وأوباشـها خرجـوا عـلى أهلهـا، وأن المسـجونين فيهـا فتحـوا السـجن وخرجـوا منـه، وأن خيـل الأعـراب أغـارت عـلى حمـص وبعلبـك وغيرهـما، إلى آخـر مـا هنالـك مـن الأخبـار التـي تذهـب بعقـل الحليـم، وتبعـث عـلى اليـأس، وتوقـع الفشـل، ومـع ذلـك نـرى عبـد الملـك يظـل رابـط الجـأش، شـديد الإيمـان بنجمـه وكفاءتـه ومقدرتـه، حتـى لقـد تقبـل هـذه الأخبـار جميعهـا بالابتسـامة وانطـلاق الوجـه، وأخـذ يقلـب وجـوه الـرأي يبحـث أحسـن السـبل لتثبيـت ملكـه وتوطيـد عرشـه.

ويظهـر أن عبـد الملـك لمـا أحـس باضطـراب الأمـر حولـه، راح يتريـث في حركاتـه وزحوفـه، فلـم يتقـدم إلى اسـتباق الحـوادث، ولا راح يحـارب خصومـه في الحجـاز والعـراق وعـلى الحـدود العربيـة البيزنطيـة وهـم كـثر، بـل أخـذ يتحايـل للأمـر، ويرتقـب الحـوادث، فـترك ابـن الزبـير يقاتـل الشـيعة في الكوفـة والخـوارج في مختلـف البـلاد، لا يتعـرض لهـؤلاء ولا لهـؤلاء، وكان غرضـه ظاهـرًا، وحيلتـه ناجحـة عـلى النجـاح،

كان يرمـي إلى إضعـاف خصومـه، فـإذا أصبـح ذلـك أمـرًا مقضيًـا زحـف عـلى الرابـح، وقـد أتعبـه العـراك، وبرحـت بـه الحـروب، فينتـصر عليـه ويسـحقه..

وكان أول مـا فطـن لـه عبـد الملـك موقـف مـن الإمبراطوريـة الرومانيـة، فاعتـزم الاتفـاق معهـا مؤقتًـا ريثـما يتسـق أمـره، ويسـتتب سـلطانه، ولـو أفـضى بـه ذلـك إلى مـا يكـره، ولذلـك نـراه لا يـرى كبـيرًا في مهادنـة إمبراطـور القسـطنطينية حـين أغـارت جنـوده عـلى المصيصـة سـنة ٧٠ للهجـرة، حتـى لا ينتهـز فرصـة انشـغال بقتـال ابـن الزبـير فيوغـل في بـلاد الشـام، وقـد بعـث إليـه عبـد الملـك بالهدايـا والأمـوال، وصالحـة عـلى أن يـؤدي إليـه خمسـين ألفًـا مـن الدنانـير في كل عـام، ولكنـه مـا لبـث أن قطعهـا عنـه حـين سـحق خصومـه وأصبـح سـيد العربيـة غـير منـازع.

تعاقب الحوادث

والواقـع أن عبـد الملـك لمـا تسـلم عـرش الخلافـة وجـد والـده مـروان بـن الحكم قد جهـز جيشًـا يقـوده عبـد اللـه بـن زيـاد إلى الجزيـرة لمحاربـة زفـر بـن الحـرث بقرقيسـيا، حتـى إذا فـرغ منهـا توجـه إلى العـراق وأخـذه مـن ابـن الزبـير، فلـما كان ابـن زيـاد في الجزيـرة بلغـه مـوت مـروان، وأتـاه كتـاب عبـد الملـك يسـتعمله عـلى مـا اسـتعمله عليـه والـده، ويحثـه عـلى السـير نحـو العـراق، فسـار حتـى إذا كان بعـين الـوردة، قابلتـه جنـود مقبلـة مـن العـراق لم يبعثهـم أمـير، ولكنهـم خرجـوا للمطالبـة بـدم الحسـين، وسـموا أنفسـهم (التوابـين)، وقـد وصفنـا في السـابق شـأنهم،وكيف تمكـن ابـن زيـاد منهـم، وفـرق جموعهـم، فعـاد فلولهـم إلى الكوفـة وانضمـوا إلى المختـار الـذي كان قـد أظهـر نفسـه وكيـف تمكـن المختـار بعـد انضـمام الشـيعة إليـه مـن الوثـوب بالكوفـة، وإخـراج عامـل ابـن الزبـير فيهـا، وإرسـال الجنـد بقيـادة إبراهيـم الأشـتر لقتـال ابـن زيـاد، وكيـف وفـق الاشـتراك إلى سـحق جنـود الشـام وقتـل ابـن زيـاد، وكيـف أرسـل ابـن الزبـير أخـاه مصعبًا لمحاربـة المختـار، وكيـف وفـق مصعـب إلى سـحقه وقتلـه، فعـاد العـراق إلى سـلطان ابـن الزبـير، وكان الأمـر في الشـام ومـصر لعبـد الملـك بـن مـروان.

بقـى عبـد الملـك بـن مـروان أمـر واحـد، وهـو الاطمئنـان إلى سـلامة عـرش في دمشـق قبـل أن يفكـر تفكـيرًا جديًـا في الزحـف عـلى العـراق..

فتنة في دمشق

والواقع أن الأمر في دمشق لم يكن قد اطمأن لولد مروان بن الحكم، فقد كان لا يزال بين بني أمية من يرى نفسه أحق بالخلافة منهم، خصوصًا أن ولد مروان ومروان نفسه كانوا بعيدين عن دمشق مدة خلافة معاوية ويزيد وكانوا في الواقع أقرب إلى أهل المدينة منهم إلى أهل دمشق.

كان عبد الملك يحس ذلك، ويعرفه، فنراه لما قرر الخروج إلى قرقيسيا وبها زقر بن الحرث، يأخذ كل من يشك فيه من بني أمية معه، كعمرو ابن سعيد بن العاص وغيره، فلما بلغ الجيش حلب، غادر عمرو بن سعيد الجيش وأسرع إلى دمشق فدخلها، وغلب عليها وعلى خزائنها وجمع الناس فخطبهم ومناهم ووعدهم.

وأصبح عبد الملك فلم يرى عمروًا معه، وأخبر خبره، فأسرع نحو دمشق، فقاتله أيامًا. يقول المؤرخون بعدها أنه ثناه عن رأيه ومناه بولاية العهد، فاتفقا على ذلك، ورضي عمرو ابن سعيد العاص بخلافة عبد الملك بعد أن قطعا العهود والمواثيق على أن تكون ولاية العهد له من بعده ولكن عبد الملك كان يريد ولاية العهد لابنه، وقد رأينا كيف أنه كان يطلب من شقيقه عبد العزيز بن مروان أن يتنازل عنها لولده، فكيف يفضي بها إلى غير أهله، وما كانت مواثيقه وعهوده ووعوده أعذارً تكلفها، لقمع الثورة ريثما يوفق إلى القضاء على عمرو بن سعيد وينفرد بالخلافة وحده.

وكان ذلك أمرًا مقضيًا فإن عبد الملك ما عتم بعد أيام أن دعا عمرو ابن سعيد إليه في قصره، وأمر رجاله بضرب عنقه، ففعلوا، وصفا عندئذ الجو له في دمشق، ولم يبق له منازع أو مخالف.

اتفقا الفيسية واليمنية

ولما انتهى عبد الملك من القضاء على الثورة في دمشق، وصفا له الجو، قرر السير إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير، فنصحه بعض بني أمية أن لا يفعل، ودعوه إلى أن يقنع بالشام ومصر، وأن يترك العراق والحجاز لابن الزبير، فأبى ذلك واعتزم الذهاب إلى العراق بنفسه، وأن لا يكل إلى أحد قواده مثل هذا العمل الخطير، الذي كان يتعلق مصير ملكه وخلافته عليه.

ويظهر ابن عبد الملك قد سار إلى قرقيسيا أولاً حيث زقر بن الحرث زعيم

القيسية، كما يظهر أنه كان قليل الرغبة في مجابهة هذا الزعيم القيسي بالحرب، مفضلاً الاتفاق معه، وقد وفق عبد الملك إلى ذلك فنزل زقر على إمامته وبايعه، وتصالحا على وضع الدماء والأموال.

وبذلك انتهى النزاع بين القيسية واليمنية، وانضموا جميعًا تحت لواء عبد الملك، وإن كان العداء بين القبيلتين لم يخمد تمامًا، بل ظل كامنًا في الصدور، يترقب الفرصة لانفجار والانطلاق..

مقتل مصعب

ولما انتهى عبد الملك من مصالحه القيسين سار إلى العرق، فلما بلغ مصعبًا مسيره وهو بالبصرة أرسل إلى الملهب وهو يقاتل الخوارج يستشيره، ويقال بل أحضره عنده فقال له:

اعلم أن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك، وكاتبهم فلا تبعدني عنك. فقال له مصعب: أن أهل البصرة أبو أن يسيروا لقتال عبد الملك إلا أن أجعلك على قتال الخوارج، مخافة أنه يقتحم الخوارج بلدهم في غيابهم، وأنا أكره إذ سار عبد الملك إلي أن لا أسير إليه فاكفني هذا الثغر..

وسار مصعب إلى الكوفة حتى نزل (باخرًا) وسار عبد الملك وجنده حتى نزلوا قريبًا من معسكر مصعب.

وأخذ عبد الملك يبعث بالكتب إلى زعماء العراق وقواده يستحيلهم إليه ويمنيهم بالعطاء والنوال، حتى أفسدهم على مصعب، وقد أخفى كل منهم كتاب عبد الملك إلا الاشتر فأعطاه لمصعب، وحذره من القواد والزعماء ونصحه بقتلهم فأبى مصعب أن يفعل.

وتقدم يحارب عبد الملك بجنده المنتقض عليه، وكان هذا من سوء السياسة وضعف النظر، ولو أخذ برأي الاشتر لكان أحكم وأفضل.

ونشبت المعركة على مقربة من "باخرا" كما قدمنا، واستبسل مصعب، استبسالاً عظيمًا، ووعده عبد الملك بالأمان فأبى، ونصحه أهله بالرجوع إلى البصرة فإنهم على الطاعة، فرفض أن يهرب، ودخل إلى سرادقه فتحنط ورمى السرادق، وخرج يقاتل جنود عبد الملك حتى لم يبق حوله إلا سبعة من رجاله، وعبد الملك يمينه بالأمان، ويقول له: "يعز علي أن تقتل فأقبل أماني، ولك حكمك في المال والعمل، فيأبى ولا يزال يقاتلني

حتى يقتل ويحتز القوم رأسه ويلقونه بين يدي عبد الملك فيخر ساجدًا وهو يقول:

نعاطي الملوك الحق ما قسطوا لنا وليس علينا قتلهم بمحرم

والواقع أن مصعب بن الزبير القائد النبيل الشجاع قد أخطأ خطأ عظيمًا في إبعاده المهلب القائد العربي الباسل عنه، لأن خطر عبد الملك كان أشد من خطر الخوارج، كما أ نه خطأ مثل ذلك في إبعاد غير المهلب من قواده البارعين عنه، وإبقاء الخونة من القواد بين جنوده، ومن كانوا ينتظرون الفرصة السانحة لمغادرته واللحاق بأوطانهم،وقد نصحه المهلب فلم يقبل نصيحته، ولو فعل، لما وفق عبد الملك التوفيق الذي وصفناه، ولطالت الحرب، وكثرت الزحوف، وتبدل الموقف كل التبدل.

وبمقتل مصعب بن الزبير صفا الجو لعبد الملك، فدانت له العراق وأكثر البلاد الإسلامية،ولم يبق غير الحجاز وفيه عبد الله بن الزبير، فوطد عبد الملك النفس على مهاجمته، وبعث له بجيش قوي تحت قيادة الحجاج بن يوسف، فمازال يقاتله ويحاربه ويناضله حتى تمكن من تشتيت جنوده وقتله، فدانت البلاد الإسلامية كلها لسلطان عبد الملك، وقضي على الحزب الزبيري القضاء المبرم.

لماذا انهار الزبيري

ترجع أسباب انهيار الزبيري إلى عوامل كثيرة، أهمها وأولها أن عبد الله بن الزبير نفسه لم يكن الرجل الذي يستطيع أن ينشئ ملكًا ويبني سلطانًا.

وأما العوامل الأخرى فكثيرة وأهمها: ما انصرف إليه عبد الله بن الزبير من اتخاذ مقر حكومته في الحجاز، والحجاز بعيد عن كل الأمصار العربية بامتداد الفتوح، واتساع الزحوف، فأصبح والحالة هذه بعيدًا عن مركز العربية، غريبًا عن مقر الحركات السياسية، لا يستطيع إقرار أمر إلا بعد طول مدى، وامتداد شقة، ولا يصل إليه الخبر بعد أشهر من تاريخ وقوعه وحدوثه. أضف إلى هذا أن الحجاز أصبح بعد امتداد الفتوح، ومغادرة أكثر العناصر السياسية له إلى الشام والعراق، مأوى الطبقة الارستقراطية من إشراف قريش والأنصار الذين انصرفوا عن النزاع السياسي الذي كان يغمر دمشق، وتضطرب به العراق إلى حياة الدعة واللهو والمجون كما يمثل لنا ذلك شعراء الشعراء في هذا العهد، فكان أهله

والحالة هذه أبعد الناس عن الحرب، وحب الزحوف، ومثل هذه الظاهرة لم تكن توطد عرشًا، أو تؤسس ملكًا..

ويظهر أن ابن الزبير كان كثير الرغبة في إعادة الخلافة إلى الحجاز، بعد أن أفضت بها الفتن الأخيرة إلى دمشق، ومثل هذا الرأي يدل على أنه لم يكن يدرك مدى التطور العظيم الذي طرأ على الدولة العربية الجديدة، فنقلها من الحجاز المجدب إلى هذه المشارف الماتعة في دمشق ومصر وعلى ضفاف دجلة والفرات، وكان من الحق أن يكون أبعد نظرًا، وأمضى رأيًا فيدرك هذه الفروق العظيمة، والتطورات الخطيرة، ويعلم أن الحجاز لن يكون عاصمة مملكة ومقر إمبراطورية تمتد أطرافها من مشرق الشمس إلى المغرب..

وأخطأ ابن الزبير غير خطأ واحد بعد انسحاب جند يزيد بن معاوية من جوار مكة، كان عليه أن يتحرك منها إلى العراق والشام، وكان عليه أن يمضي في تأهبه واستعداده على نحو ما كان يفعل عدوه، وكان عليه أن لا يتواكل في نشر دعوته، وبث دعاته، وأن لا يترك أنصاره وشأنهم يحاربون عدوه وحدهم، ويقارعون خصومه وهولاه عنهم، منزوبي في أقصى الأرض.

ونحن لا ننكر إلى ذلك أنه كان لظهور الشيعة والخوارج في وجهه أثر كبير في فشله، فقد توزعت قواته، وانشغل فريق عظيم من قواده في محاربتهم ومنازلتهم، كالمهلب بن أبي صفرة الذي كان يقاوم الخوارج في خراسان، بينما عبد الملك بن مروان يحشد الجند، لمحاربة مصعب بن الزبير، وكان من الواجب، وهذه معركة يتوقف عليها مصير ابن الزبير وسلطانه أن يحشد لها كل قواته وأنصاره، وأن لا يتخاذل في ذلك ولا يتخاذى.

وشيئ آخر أيضًا هو ما اشتهر به ابن الزبير من البخل، فقد روى المؤرخون أن مصعب بن الزبير وفد على أخيه عبد الله ومعه وجوه أهل العراق، وذلك بعد مقتل المختار، فقال له:

يا أمير المؤمنين جئتك بوجوه أهل العراق لم أدع لهم بها نظيرًا، لتعطيهم من هذا المال..

فقال له: جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله ... والله لا فعلت ....

ولا نرغب في التعليق على هذا الجواب، إلا أننا لا نستطيع إنكار ما كان لجوابه هذا من أثر سيئ في نفوس العراقيين، ومن أراد توطيد ملكه، وجب عليه أن يبذل في سبيله، وقد تألف محمد الرسول (ص) نفسه العرب في عهده، ولو كان فظًا غليظ القلب لانفضوا من حوله، وهو نبي مرسل، وكان أمره الأمر، فما بالك بمثل عبد الله بن الزبير، لا يحاول تألف الناس حتى ولا بالكلام الحسن واللفظ الرقيق!...

ولا عجب والحالة هذه إذا انصرف الناس عن ابن الزبير وكاتبوا عبد الملك وغدروا بمصعب. وقد عرف فيه عبد الملك هذا البخل، فتنبأ بأفول نجمه، وقال لمصعب وهو يدعوه لأخيه: "إن فيه ثلاث خصال لا يسود بها أبدًا، عجب قد ملأه، واستغناء برأيه، وبخل التزمه، فلا يسود رجل فيه تلك الخصال::".

وبانهزام ابن الزبير فقد الحجاز شأن السياسي، ومركزه السابق، وعاد إلى سالفات أيامه، بلدًا مجدبًا لا شأن له في التاريخ الإسلامي السياسي في كثير ولا قليل...

ظهور الحجاج بن يوسف الثقفي

الذكرى النبوية

وأخيرًا يصل بنا المطاف إلى الطائف، بلد الحجاج بن يوسف الثقفي، ومنازل الإشراف من ثقيف في عهد محمد بن عبد الله...

وللطائف في تاريخ السياسة الإسلامية والغزوات الإسلامية الأولى حديث طريف، وحوار جميل..

فقد أوذي فيها محمد كما أوذي في مكة، بل لقد أوذي فيها في ساعات من يومه بأكثر مما أوذي في مكة أيامًا وأسابيع. ذلك أن ثقيفًا كانت من قبائل الحجاز العنيدة، وذلك أنها ما دانت بالإسلام إلا بعد زمن طويل وحصار عنيف، ودم كثير..

ويعود الفكر إلى هذه الأيام الأولى من عهد النبي اليتيم، يوم كان يدعو الناس في مكة إلى رسالته، فتثيرهم حلاوتها، وتهزهم رقتها، ويستخفهم ما فيها من روعةوجمال ومثل عليا، ثم يفارقونه وقد عاهدوه، وأقسموا بين يديه، أن ينشروا آياته في الشام حيال قصور الغساسنة، وفي العراق عن كثب من مضارب الأعراب الثائرين على الفرس.

وفي ذات عشية من عشيات مكة، خرج النبي محمد "ص" إلى الطائف، ومعه زيد ابن حارثة مولاه، فتوغل في سفوحها وخالط جناتها، ومضى بين خضرتها وعنابها، حتى تراءة له مياهها الرقراقة هدارة في السهول، متفجرة بين الصخور والجبال..

قصد النبي محمد "ص" الطائف، بعد أن قطع أمله فمن مكة ورجال مكة، وقد خيل إليه أنه واجد بين أهلها ما لم يجده بين أهله من عطف وتأييد، فمضى إلى هذه البلدة الجميلة التي تماثل القرى اللبنانية في قيامها على سفوح الجبال، والتي تقوم في أعاليها قصور الإشراف من ثقيف ومناسكهم وبيعهم تحيط بهم التماثيل والأصنام والدمى، فما وجد عند من دعاهم إلى رسالته عطفًا ولا إنسًا، بل لقد أغلق سكان الطائف في وجهه منازلهم وعاذوا في بيوتهم، وزاد بعضهم ندى فأغروا سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمون عراقيب بالحجارة حتى اختضت نعلاه بالدماء، فإذا حاول الراحة في بعض الطريق، أخذوا بعضديه وأقاموه، فإذا مشى رجموه وهم يضحكون ويهزجون، وزيد بن حارثة يتقيه

بنفسـه.. حتـى وصـل إلى جـدار منـزل منفـرد تحيـط بـه الـدوالي، فلـما عـاذ بـه أطلـق لنفسـه شـجونها فبـكى وانـبرى يحـدث ربـه هامسًـا:

"اللهـم إليـك أشـكو ضعـف قـوتي وقلـة حيلتي، وهـواني عـلى النـاس يـا أرحـم الراحمين وأنـت رب المسـتضعفين، إلى مـن تكلنـي، إلى عـدو بعيـد يتهجـم عـلي، أم إلى صديـق قريـب ملكتـه أمـري، إن لم تكـن غضبانًـا عـلي فـلا أبـالي غـير أن عافيتـك أوسـع لي، أعـوذ بنـور وجهك الـذي أضـاءت لـه السـموات وأشرقـت لـه الظلـمات وصلـح عليـه أمـر الدنيـا والآخـرة أن ينزل بي غضبـك أو يحـل بي سـخطك ولـك العتبـى حتـى تـرضى ولا حـول ولا قـوة إلا بـك".

وكان عـلى جـدار البيـت الـذي آوى إليـه شـيخان مـن شـيوخ قريـش هـما عتبـة وشـيبة أبنـاء ربيعـة، فلـما رأيـا مـا لقـى واسـتمعا إلى دعائـه رقـا لـه رقـة شـديدة، وتحركـت رحمهـما فـتركا مكانهـما عـلى الحائـط وخفـا إلى روضـة يجنيـان الثـمار ثـم بعثـا إليـه مـع عـداس النـصراني غلامهـما قطـف عنـب وجلسـا عـن كثـب يلحظانـه ويسـتمعان إلى همسـه، فوضـع عـداس العنـب بـين يـدي محمـد ووقـف حيالـه لا يريـد فراقـه، فوضـع النبـي "ص" يـده في القطـف وقـال:

- بسم الله

فرعش عداس وارتد نظره إلى الرسول فرآه يأكل العنب رابط الجأش فقال له:

"لقد سمعتك تذكر كلامًا ما يقوله أهل هذه البلدة؟

فنظر الرسول إليه وقد استأنس إلى رقة في حديثه فقال له:

"من أي البلاد أنت وما دينك؟

فقال: نصراني من نينوي.

فقال محمد "ص": "من قرية الرجل الصالح يونس ابن متى؟

فقال: وما يدريك؟

قال: ذاك أخي وهو نبي مثلي.

فاضطـرب عـداس اضطرابًـا شـديدًا، واكـب عـلى رأسـه محمـد "ص" ويديـه وقدميـه يقبلهـما، وابنـا ربيعـة بنظرانـه ويسـمعانه...

هـذه ذكـرى مؤلمـة، مـا نسـتطيع تناسـيها، ونحـن حـين نذكـر الطائـف نذكـر مـا

قاساه الرسول محمد "ص" فيها، ونذكر فيما نذكره أيضًا، أنه لما حاول عزوفًا عنها، وأزمع مضيًا إلى مكة، التفت إلى الطائف الغارقة في بهاء الصبح فلم يلعنها ولم يسخط على أولئك الذين رجموه بالحجارة، ولم يستنزل غضب السماء على نبلائها وأشرافها، بل لقد دعا لقومه الجاهلين، دعاء طيبًا، وبارك الفقراء والمستضعفين وسأل الله إصلاحهم وإصلاح ذراريهم من بعدهم!

الحجاج بن يوسف

ولقد ولد الحجاج بن يوسف في الطائف، منازل قبيلة ثقيف، قبيلة الجاه والمتعة والزعامة في الجاهلية، ويقال أنه ولد في عهد معاوية، وفي سنة ٤١ للهجرة على الأرجح، وكانت فقيرة معدمة، وكان ضعيف الجسم في طفولته، وله شقيق أكبر منه يدعى محمد، وشقيقة تدعى زينب، أما حياته الأولى فمجهولة تمامًا لا يذكر لنا التاريخ عنها شيئًا، ولكننا نعلم أن والده كان معلمًا، وأنه سوف تكلف هذه الصناعة أيضًا، فكان يعلم الأطفال كتابة القرآن وقراءاته وحفظه.

ولكنه لم يطق هذه الحياة الوادعة الساكنة طويلاً، وأخذ يحس في نفسه رغبة عظيمة في مغادرة قريته إلى دمشق حيث الترف والعز، وحيث السياسة والسيف، لقد كان يحس في نفسه أنه لم يخلق لهذا النوع من العمل، تعليم الأطفال في قرية نائية بعيدة، وكان يعلم أن مستقبله سيكون مظلمًا حقًا إذا ظل في قريته هذه، وما كادت تضطرب هذه الفكرة في نفسه، حتى تغلبت على كل حواسه، وإذا هو يقرر مغادرة قريته كما فعل كثيرون من أمثاله، ومن المؤكد أن تلامذته لم يأسفوا لفراقه فقد كانت عصاه (مقرعتة) شديدة قاسية على لحومهم البيضة الطرية..

وتمضي الأيام فلا نعلم من أمره بعد مغادرته الطائف وأطفالها شيئًا، ولكن الأغاني يذكر لنا فيما يذكره من أخباره أنه حضر مذبحة(الحرة) في المدينة سنة ٦٣ للهجرة – آب ٦٨٣ – وأنه هرب منها تاركًا والده وحده، وأنه راح بعد ذلك يعتذر عن هربه.

وفي سنة ٦٥ للهجرة ترى الحجاج مع أبيه في الجيش الذي أرسله مروان ابن الحكم لمهاجمة ابن الزبير في مكة، وقد عرف ما أصاب هذا الجيش في معركة

(الربـدة) مـن فشـل مريـع. ولكـن الحجـاج ووالـده تمكنـا مـن الهـرب والنجـاة أيضًـا، بعـد أن رمـى بالعلـم الـذي كان يحملـه في يـده.. يقـول بعـض المؤخريـن أن يوسـف والـد الحجـاج هلـك في هـذه المعركـة، ولكـن ابـن قتيبـة في كتابـه (المعـارف) ينكـر ذلـك، ويؤيـده في ذلـك الطـبري وابـن الأثـير، ويظهـر مـن أقـوال هـؤلاء المؤرخـين أن عبـد الملـك بـن مـروان عهـد إلى يوسـف والـد الحجـاج بعـد ذلـك بإحـدى الولايـات، كـما عهـد إلى ابنـه الحجـاج بالمدينـة، وأن الحجـاج وهـو عامـل المدينـة أبـن والـده لما علـم بموتـه.

وكذلـك أن (فتوحـات) الحجـاج الأولى العسـكرية لم تكـن موفقـة، فـما نـراه وفـق في بعـث، ولا ضحـى في معركة،وكذلـك نـراه مثـل ذلـك في إداراتـه الأولى، فقـد بعـث بـه عبـد الملـك حاكـمًا عـلى (تبالـه) فـما عتـم أن أعـرض عنهـا لمـا رآه مـن ضعـف خطرهـا، وخسـيس أهميتهـا، والظاهـر أنـه كان يـرى نفسـه أكـثر اسـتحقاقًا، وأعظـم شـأنًا، ولعلـه ذهـب بعدهـا إلى روح بـن زنبـاع الـذي كان مـن أعـوان عبـد الملـك المقربـين، وانضـم إلى شرطتـه. ويقـول ابـن قتيبـة أن الحجـاج عـين بعـد ذلـك قائـدًا لشرطـة أبـان بـن مـروان شـقيق عبـد الملـك وحاكـم فلسـطين في هـذا العهـد.

ظهور الحجـاج

وفي سـنة ٧٠ للهجـرة غـادر عبـد الملـك بـن مـروان الشـام إلى العـراق لمحاربـة مصعـب بـن الزبـير، فغلـب عمـرو بـن سـعيد في غيابـه عـلى دمشـق فرجـع عبـد الملـك إليهـا، وكان مـا كان مـن مقتـل عمـرو بـن سـعيد كـما ذكرنـا، فاطـمأن عبـد الملـك عندئـذ إلى اسـتتباب ملكـه، وانتظـام شـأنه، أخـذ طريـق العـراق كـرة ثانيـة، وأوجـس عبـد الملـك وهـو في طريقـه إلى العـراق شرًا لمـا رأى انحـلال عسـكره، وإن النـاس لا يرحلـون برحيلـه ولا ينزلـون بنزولـه فشـكا ذلـك إلى روح بـن زنبـاع فقـال لـه:

- إن في شرطتـي رجـلاً لـو قلـده أمـير المؤمنـين أمـر عسـكره لأرحـل النـاس برحيلـه وأنزلهـم بنزولـه يقـال لـه الحجـاج بن يوسـف.

فقال عبد الملك: فأنا أقلده ذلك.

فـكان لا يقـدر أحـد أن يتخلـف عـن الرحيـل إلا أعـوان روح بـن زنبـاع، فوقـف عليهـم يومًـا، وقـد أرحـل النـاس عـلى الطعـام يأكلـون فقـال لهـم:

-ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟

فقالوا له: انزل يا ابن اللخناء فكل معنا.

فقال لهم: هيهات ذهب ذلك، ثم أمر بهم، ف جلدوا بالسياط، وطوفهم بالعسكر،وأمر بفساطيط روح فأحرقت بالنار، فدخل روح علي عبد الملك باكياً، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج الذي كان في شرطتي ضرب غلماني وأحرق فساطيطي.

قال: علي به، فلما دخل عليه قال:

- ما حملك على ما فعلت؟

قال: أنا ما فعلت.

قال: ومن فعل؟

قال: أنت فعلت إنما يدي يدك، وسوطي سوطك، وما على أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين،وعوض الغلام غلامين فلا يكسرني فيما قدمني له.

فاطرق عبد الملك هنيهة ثم قال:

- سأفعل ذلك.

ومن ذلك الوقت، أحس عبد الملك بقوة الحجاج وبأسه وأخلاقه، وأنه يستطيع الاعتماد عليه في كل أمره..

وانتهت المعركة بين جيش عبد الملك ومصعب وبعد أن عين عبد الملك شقيقه بشر بن مروان على الكوفة،وخالد بن عبد الله على البصرة عاد إلى دمشق وهو يفكر في التهيؤ لابن الزبير وحربه بعد أن صفا له جو الولايات العربية كلها،ولم يبق خارجًا عن سلطته إلا الحجاز...

الحجاج بن يوسف يحاصر الكعبة

الحجاج يقود حملة الحجاز

يقـول المؤرخـون أن السـبب في إرسـال عبـد الملـك بـن مـروان الحجـاج لقتـال ابـن الزبـير، دون غـيره مـن النـاس، مـع مـا رأينـاه مـن رغبـة عبـد الملـك أن يسـير قتـال خصمـه بنفسـه وعـلى رأس جنـوده، أن الحجـاج جـاء يومًـا وهـو يقـول:

- رأيـت في المنـام أني أخـذت عبـد اللـه بـن الزبـير فسـلخته فابعثنـي إليـه، وولنـي قتلـه فبعثـه عبـد الملـك عـلى رأس ألفـين مـن جنـود الشـام وذلـك في سـنة ٧٢للهجـرة، وكان للحجـاج مـن العمـر في ذلـك الوقـت٣١ سـنة، فوصـل في شـهر شـعبان للطائـف، ولم يتقـدم رأسًـا إلى مكـة.

وسـبب ذلـك في رغبـة الحجـاج في أن يكـون لـه ولجنـده مركـز منيـع يـأوى إليـه في بلـد أكـثر أهلـه خصـوم لـه، ومـا لديـه مـن الجنـد ليـس يفـوق جنـد عـدوه، وكانـت الطائـف لقيامهـا عـلى جبـل غـزوان بلـداً منيعًـا مـن الوجهـة العسـكرية يسـتطيع الجنـد المهاجـم أن يعتمـد عـلى مناعتهـا الطبيعيـة فيـما إذا لم يوفـق في زحفـه، وحـاول عـدوه اللحـاق بـه، وقـد يكـون مـن الأسـباب التـي أهابـت بالحجـاج بالنـزول إلى الطائـف أول الأمـر، إنهـا كانـت بلـده، وكان يهمـه وهـو في مهـد شـبابه أن يدخلهـا عـلى رأس جنـد الشـام، فيعـزز بذلـك مركـزه ومركـز عائلتـه، ويظهـر بـين أترابـه بمظهـر العـز والمنعـة والمجـد..

ويظهـر لـه أن عبـد الملـك كان كثـير الرغبـة في أن لا يثيرهـا مجـزرة أو مذبحـة في مكـة مخافـة أن يلـم بـه مـا ألم بيزيـد بـن معاويـة بعـد مذبحـة الحـرة مـن غضـب المسـلمين عليـه ونقمتهـم عـلى خلافتـه، فـأوصى الحجـاج بـأن لا يحـارب ابـن الزبـير في مكـة، وبعـث لـه بالأمـان لابـن الزبـير ومـن يشـايعه أن أطاعـوا، وهـذا سـبب مـا نـراه مـن وقـوف الحجـاج موقـف المتريـث أول الأمـر، قـدم إلى الطائـف ولم يعـرض للمدينـة، وكان يبعـث الخيـل إلى عرفة،ويبعـث ابـن الزبـير خيلـه أيضًـا فيقتتلـون سـاعة مـن نهـار، ثـم تخـزم خيـل ابـن الزبـير وتعـود خيـل الحجـاج ظافـرة غانمـة.

وعندئـذ كتـب الحجـاج إلى عبـد الملـك يعلمه بضعـف ابن الزبير ويسـتمده ويسـتأذنه في دخـول الحـرم، وحـصر ابـن الزبـير، فكتـب عبـد الملـك إلى طـارق أحد قـواده يأمـره باللحاق بالحجـاج، فقـدم المدينـة في ذي القعـدة مـن سـنة ٧٢ للهجـرة، وأخـرج عامـل ابـن الزبير عنها، وقـدم عـلى الحجـاج وهـو بمكـة في أواخر السـنة ومعـه خمسـة آلاف مقاتل.

ولمـا وصلـت النجـدات إلى الحجـاج جعـل معسـكره في جبـل أبي قيس،وأخـذ يقاتـل ابن الزبـير في الشـهر الحـرام والبلـد الحـرام، ونصـب المنجنيق عـلى الجبـل وأخذ يرمي بـه الكعبة، ثـم توقـف عـن ذلـك أيامًـا لنقمـة الحُجـاج عليـه واسـتنكارهم لعملـه، ولكنـه مـا كاد ينتهي موسـم الحـج حتـى عـاد إلى شـأنه، ولم يزل القتـال دائرًا والحصـار واقعً، حتـى نقصت الأطعمة عنـد ابـن الزبـير وارتفعـت الأسـعار، وأصـاب النـاس جهـد عظيـم، فأخـذوا يتفرقـون عـن ابـن الزبـير وخرجـوا بالأمـان إلى الحجـاج، وكان ممـن فارقـه أبنـاء حمـزة وحبيب.

بين ابن الزبير وأمه

ولمـا رأى ابـن الزبـير أنـه لم يبـق معـه إلا قليـل لا يغنـون عنـه شـيئًا دخـل عـلى أمـه أسـماء بنـت أبي بكـر فقـال:

"يـا أمـاه، خذلنـي النـاس حتـى ولـدي وأهـلي ولم يبـق معـي إلا اليسـير، ومـن ليـس عنـده أكـثر مـن صبر سـاعة والقـوم يعطوننـي مـا أردت مـن الدنيـا فـما رأيـك؟

فقالـت: أنـت أعلـم بنفسـك، إن كنـت تعلـم أنـك عـلى حـق وإليـه تدعـوا فامض لـه فقد قتـل عليـه أصحابـك ولا تمكـن من ر قبتك يتلعب بها غلـمان بني أميـة، وإن كنت إنمـا أردت الدنيا فبئـس العبـد أنـت أهلكت نفسـك ومن قتل معـك، وإن قلت كنـت على حق فلما وهـن أصحابي ضعفـت فهـذا ليس فعـل الأحـرار ولا أهـل الدين، كـم خلـودك في الدنيا، القتل أحسـن.

فقال: يا أماه أخاف أن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني.

قالت: يا بني إن الشاة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله.

فقبل رأسها وقال:

"هـذا أبي والـذي خرجـت بـه دائبًـا إلى يومـي هـذا مـا ركنـت إلى الدنيـا ولا أحببـت الحيـاة فيهـا ومـا دعـاني إلى الخـروج إلا الغضـب للـه وأن تسـتحل حرماتـه، ولكننـي أحببت أن أعلـم رأيـك فقـد زدتنـي بصـيرة، فانظـري يـا أمـاه فـإني مقتـول يومـي هـذا فـلا يشـتد

حزنـك وسـلمي الأمـر إلى اللـه، فـإن ابنـك لم يتعهـد إيثـار منكـر، ولا عمـلاً بفاحشـة،ولم يجر في حكـم اللـه، ولم يغـدر في أمـان، ولم يتعهـد ظلـم مسـلم أو معاهـد، ولم يبلغنـي ظلـم عـن عـمالي فرضيـت بـه بـل أنكرتـه ولم يكـن شـيئ آثـر عنـدي مـن رضـاء ربي، اللهـم لا أقـول هـذا تزكيـة لنفـسي، ولكنـي أقولـه تعزيـة لأمـي حتـى تسـأو عنـي".

فقالـت أمـه: لأرجـو أن يكـون عـزائي فيـك جميـلاً، إن تقدمتنـي احتسـبتك وإن ظفـرت سررت بظفـرك، اخـرج حتـى أنظـر إلى مـا يصـير إليـه أمـرك.

فقال: جزاك الله خيرًا فلا تدعي الدعاء لي.

قالت: لا أدعه لك أبدًا، فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق.

ثـم قالـت: اللهـم ارحـم هـول ذاك القيـام في الليـل الطويـل، وذلـك النحيـب والظـمأ في هواجـز مكـة والمدينـة؛ وبـره بأبيـه وبي، اللهـم قـد سـلمته لأمـرك فيـه، ورضيـت بمـا قضيـت فأثبنـي فيـه ثـواب الصابريـن الشـاكرين.

فتناول يديها ليقبلها، فقالت: امض على بصيرتك وادن مني حتى أودعك.

فدنا منها فعانقها وقبلها، فوقعت يدها على الدرع، فقالت:

- ما هذا صنيع من يريد ما تريد.

فقال: ما لبسته إلا لأشد متنك.

قالت: فإنه لا يشد متني.

فنزعها ثم خرج يقاتل القوم حتى قتل.. في جمادي الآخرة من سنة ٧٣ للهجرة...

وبمقتـل ابـن الزبـير، صفـا الجـو لعبـد اللـه بـن مـروان في جميـع الأمصـار الإسـلامية، وأجمعـت عليـه الكلمـة، ولم يبـق لـه مـن منـازع أو مخالـف، وأمـا ابـن الزبـير فقـد دامـت خلافتـه تسـع سـنين لأنـه بويـع لـه سـنة ١٤ للهجـرة.

الحجاج في الحجاز والعراق

في الحجاز

أراد عبد الملك بن مروان بعد أن صفا له الجو في الأمصار الإسلامية أن يكافئ القائدين اللذين وفقًا في محاربة عبد الله بن الزبير، فعين الحجاج لمكة، وقلد طارق بن عمرو المدينة، ثم زاد في واجبات الحجاج فضم إليه اليمن واليمامة، وما لبث أن ضم إليه المدينة أيضًا بعد أن عزل طارقًا عنها.

وليس بين أيدينا عن أعمال الحجاج في مكة ثم في المدينة ما يستلفت النظر سوى ما صرفه همه له من الشدة والقسوة على كل من كان يظن فيهم الكره لبني أمية،والتنكر لسلطانهم، وقد قسا في ذلك قسوة أنكرها الناس خصوصًا في المدينة، فقد أساء إلى أهلها كثيرًا، واستخف بهم وقال: "أنتم قتلة أمير المؤمنين عثمان:"، وختم على أيدي جماعة من الصحابة بالرصاص، استخفافًا بهم، كما يفعل بأهل الذمة، منهم جابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وسهل بن سعد، فأغضب هذا أهل المدينة ومكة وشكا بعض كبارهم أمرهم إلى عبد الملك بن مروان..

وهنا تختلف روايات المؤرخين في الأسباب التي أفضت بعبد الملك إلى نقل الحجاج من الحجاز إلى العراق، فمن يقول منهم بهذه الأسباب العاطفية، ورغبة عبد الملك في رفع الشدة عن سكان الحجاز، لا يجد من يؤيده من المؤرخين المعاصرين، لأننا في الواقع لا نرى في هذه الأسباب مبررًا للنقل، وعبد الملك إنما أوفد الحجاج إلى الحجاز لقمع الفتن، وتثبيت الأمن، وقد وفق الحجاج في ذلك إلى حد بعيد، فلا سبيل والحالة هذه إلى نقله، وهو إنما يقرر رغبات عبد الملك وينفذها، ولكن السبب الأساسي في هو موت بشر بن مروان في الكوفة سنة ٧٥ للهجرة وهو شقيق عبد الملك فوجد عبد الملك، الحاجة ماسة إلى من يخلفه خصوصًا والعراق بحاجة إلى حاكم قوي شديد والخوارج لا تزال تهدده، فلم ير الخليفة غير الحجاج لهذا المنصب الخطير، فولاه إياه وأمره بالسير له، والتشمير في عمله الجديد..

هـذا هـو الـرأي الحـق في الأسـباب التـي دعـت إلى نقـل الحجـاج إلى العـراق، ولـولا وفـاة بـشر بـن مـروان لظـل الحجـاج في الحجـاز مـدة أخـرى مـن الزمـن..

ولعـل أهـم عمـل قـام بـه الحجـاج في الحجـاز هـو تعمـير الكعبـة التـي دمـر بعـض جدرانهـا أثنـاء الحصـار مـا كان يلقيـه عليهـا مـن الحجـارة الكبـيرة، وإذا اسـتثنينا هـذا فـلا نـرى للحجـاج عمـلاً عمرانيًـا مـدة ولايتـه عـلى الحجـاز التـي طالـت إلى ثـلاث سـنوات مـا فيهـا الأيـام التـي قضاهـا في الطائـف قبـل مهاجمتـه لابـن الزبـير في مكـة.

عمارة الكعبة

كانـت الكعبـة في عهـد ابـن الزبـير عـلى نحـو مـا كانـت عليـه في عهـد الرسـول محمـد بـن عبـد اللـه "ص"، فلـما آل الأمـر إلى يزيـد بـن معاويـة كان عبـد اللـه بـن الزبـير مـا يـزال منتقضًـا عـلى إمـارة الأمويـين تأثـرًا بهـم مكـة، فجـرد عليـه يزيـد جيشًـا لإخضاعـه. وكان عليـه الحصـين بـن نمـير،فسـار إليـه وضيـق عليـه الحصـار مكـة، ولم يطـق ابـن الزبـير ورجالـه مقاومتـه فجـأوا منـه إلى الحـرام وبنـوا حـول الكعبـة خصاصًـا مـن القصـب يحتمـون بهـا مـن حجـارة المنجنيـق، الـذي نصبـه ابـن نمـير، عـلى جبـلي مكـة أبي قبيـس وقيقعـان، ولم تمنـع هـذه الخصـاص اللاجئـين إليهـا مـن شر الحجـارة، وكان ابـن نمـير قـد أمـر أصحابـه أن يرمـوا الكعبـة مـن المنجنيـق بعـشرة آلاف حجـر، وكانـوا يرمـون ويرتجـزون، وكانـت الحجـارة تصيـب الكعبـة حتـى تمزقـت كسـوتها وبـدت أحجارهـا، وأصـاب الذيـن قيمـون بالخصـاص والخيـام حـول الكعبـة الفـزع، حتـى أن أحدهـم ليوقـد نـاراً في خيمـة قامـة بين ركـن الحجـر الأسـود والركـن اليـماني؛ إذ طـارت منـه شـارة أحرقـت الخيـام وتعلقـت باسـتاد البيـت، ولمـا كان بنـاء الكعبـة يومئـذ مدمـاكًا مـن حجـر ومدمـاكًا مـن خشـب السـاج فقـد احـترق الخشـب ووهـن البنـاء كلـه، حتـى كان وقـوع الحـمام عـلى الكعبـة كافيًـا لتتأثـر حجارتهـا.

ولقـد فـزع لذلـك أهـل مكـة وأهـل الشـام جميعًـا، وتـرك ابـن الزبـير الكعبـة ليراهـا النـاس، فيكـون مرآهـا محرضًـا لهـم عـلى أهـل الشـام، وظـل الأمـر كذلـك، وظـل الحصـين بـن نمـير محـاصر البلـد الحـرام حتـى لبلغـه نعـي يزيـد بـن معاويـة، فرجـع إلى الشـام تـاركًا لكعبـة واهيـة توشـك أن تنقـض.

وتحـدث عندئـذ ابـن الزبـير إلى أهـل مكـة، مـا يصنـع بالبيـت، أيصلـح مـا وهـي

منـه، أم ينقضـه ويعيـد بنـاءه، وكان عبـد اللـه بـن عبـاس عـلى رأس المعارضـين للهـدم وإعـادة البنـاء، وقـال موجهًـا كلامـه لابـن الزبـير:

- دعهـا عـلى مـا أقرهـا رسـول اللـه صلى اللـه عليـه وسـلم، فـأني أخـشى أن يـأتي بعـدك مـن يهدمهـا ثـم بعـد ذلـك آخـر، فـلا تـزال أبـداً تهـدم وتبنـي فتذهـب حرمـة هـذا البيـت مـن قلوبهـم، ولا أحـب ذلـك ولكـن ارقعهـا.

فأجابـه ابـن الزبـير: واللـه مـا يـرضى أحدكـم أن يرقـع بيـت أبيـه وأمـه فكيـف أرقـع بيـت اللـه سـبحانه، وأنـا أنظـر إليـه ينقـض مـن أعـلاه إلى أسـفله، حتـى أن الحـمام ليقـع عليـه فتتنـاثـر حجارتـه..

وأقـام أيامًـا يشـاور ويسـتخير، ثـم أجمـع عـلى هـدم الكعبـة، وهدمهـا وأعـاد بناءهـا، ولمـا كانـت خالتـه عائشـة أم المؤمنـين تذكـر أن رسـول اللـه قـال لهـا:

- يـا عائشـة، لـولا أن قومـك حديثـو عهـد بالجاهليـة لأمرت بالبيـت فهـدم، فأدخلت فيه مـا أخـرج منـه وألزقتـه بـالأرض وجعلت لـه بابـاً شرقيًا وبابًـا غربيًا، فبلغت بـه أسـاس إبراهيم".

لذلـك زاد ابـن الزبـير في مسـاحة الكعبـة فأدخـل فيهـا حجـر إسـماعيل، بعـد أن كشـف عـن أساسـها وجعـل لهـا بابـين وألصقهـا بـالأرض.

ولما هدم ابن الزبير الكعبة وشرع في إعادة بنائها بعث إليه عبد الله بن عباس يقول:

- لا تـدع النـاس بغير قبلـة، انصـب لهـم حـول الكعبـة الخشـب، واجعـل عليهـا السـتور حتـى يطـوف النـاس مـن ورائهـا ويصلـوا إليهـا.

ونفذ ابن الزبير مشورة ابن عباس.

ولمـا تـم بنـاء الكعبـة اعتمـر ابـن الزبـير محرمًـا مـن التنعيـم، واعتمـر النـاس معـه ونحـروا وأقامـوا يطعمـون ويُطعمـون شـكرًا للـه عـلى تيسـير بنـاء بيتـه الحـرام، وكان ذلـك في السـنة الخامسـة والسـتين مـن الهجـرة.

وظلـت الكعبـة كـما بناهـا ابـن الزبـير عـشر سـنوات، فلـما كان عهـد عبـد الملـك ابـن مـروان، وحـاصر الحجـاج ابـن الزبـير وقتلـه، كتـب إلى عبـد اللـه يخـبره أن ابـن الزبـير زاد في الكعبـة مـا ليـس منهـا وأحـدث فيهـا بابًـا آخـر، ويسـتأذنه في رد ذلـك إلى مـا كان عليـه في الجاهليـة، وأذن عبـد الملـك، وغـير الحجـاج الجـدار الـذي من جهة الحجر وسـد البـاب الغربي

ورفع البناء ورفع باب الكعبة على ما كانت في الجاهلية، ويذكرون أن عبد الملك ندم على إذنه للحجاج ولعنه وقال: "وددنا أنا تركنا ابن الزبير وما تولى من ذلك."

وإذا نظرنا إلى الحالة السياسية في الحجاز لما غادره الحجاج إلى العراق نرى أن المعارضة فيه قد خنقت حقًا، فابناه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد سكنوا إلى حظهم وانصرفوا إلى العناية بالثقافة المعاصرة في عهدهم فبرعوا فيها، وعائلة ابن الزبير لم تعد لها قائمة، ولا استقام لها عز ولا سلطان في مقبلات الأيام..

الوضع في العراق

كان العراق لما عين عبد الملك الحجاج بن يوسف عليه في حالة دقيقة من الاضطراب وعدم الاستقرار، ويظهر أن بشر بن مروان شقيق عبد الملك وحاكم الكوفة لم يكن بالرجل الإداري الحازم، بحيث يستطيع جمع الشمل، وتوثيق الأطراف، وتهدئة النفوس، والقضاء على الخوارج الذين كانوا لا يبرحون يهددون العراق في معاقلهم في فارس وخراسان، ويتبسطون في الثغور التي حولهم حتى حدود الهند، ولا أدل على ضيق صدره، وضعف نفسه، من رغبته في الاستغناء عن القائد اليمنى البارع المهلب بن أبي صفرة، وكان عبد الملك قد أفضى إليه برغبته في أن يكون المهلب أمير الجيش لمحاربة الخوارج، وكان هو يريد أن يكل إلى هذا الأمر شخصًا آخر دون المهلب مقدرة وجرأة وبراعة عسكرية، ولو أنه كان من الفطنة والذكاء بالقدر الذي يجب أن يكون معه الحاكم الحكيم، ولما ترك لعواطفه مجالاً للتغلب على عقله، ولكنه لما رأى تشدد الخليفة في أمر المهلب أنفذه في جيش ضعيف، وأنفذ عبد الرحمن بن مخنف في أحسن جند الكوفة وأمره بالاستقلال في رأيه، وعدم الأخذ برأي المهلب في حروبه وزحوفه.

ولكن أمر بشر لم يطل، فما كاد الجيشان يذهبان لقتال الخوارج حتى جاءهم نعيه، فنفر كثير من الجند ولحقوا بأهلهم، فلما رأى ذلك المهلب غضب وأرسل إلى عبد الملك كتابًا يقول فيه:

"إما أن تبعث لي رجالاً، أو فافتح طريق البصرة للعدول."

وعندئذ اعتزم عبد الملك أن يرسل إلى العراق رجلاً شديدًا قويًا فوقع اختياره على الحجاج فبعثه إليها.

الحجاج يهدد أهل العراق ويغلظ لهم القول

في طريق الكوفة

سار الحجاج من المدينة إلى الكوفة في شهر شعبان من سنة ٧٥ للهجرة، ومعه اثنا عشر راكبًا على النجائب، فدخلها في رمضان وقد انتشر النهار فبدأ بالمسجد فصعد المنبر، وهو متلثم بعمامة خز حمراء.

ونظر الناس إلى هذا الشاب المتلثم – وكان الحجاج لا يزيد عمره عن ٣٣ سنة – وجماعته، فاستخفوا بهم، وحسبوهم من الخوارج، فهموا بهم، ولكنهم لما رأوا هدوءهم، وعدم اهتمامهم تريثوا في أمرهم، ليروا ما يكون منهم، وقال الحجاج لأحد أصحابه:

- علي بالناس!

فأخذ رجاله يدعون أهل الكوفة للصلاة جامعة، فاجتمع الناس، والحجاج ساكت قد أطال السكوت، والناس لا يزالون في شك من أمره، حتى لقد فكر أحدهم في حصبه، فلما عج المسجد بالناس، وقف الحجاج وكشف عن وجهه وقال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

"أما والله أني لا أحمل الشر محمله، وآخذه بفعله، وأجزيه بمثله، وأني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وأني لصاحبها وكأني انظر إلى الدماء بين العمائم واللحى قد شمرت عن ساقها تشميرًا..

"إن أمير المؤمنين عبد الملك قد نثر كنانته فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عودًا، ,اصلبها مكسرًا، فوجهني إليكم ورمى بي في نحوركم، فإنكم أهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق، فإنكم طالما أوضعتم في الشر، وسننتم سنن ألغى، فاستوثقوا واستقيموا، فوالله لأذيقنكم الهوان، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل حتى تذروا العصيان وتناقدوا، ولأقرعنكم قرع المروة حتى تلينوا، أني والله ما أعد إلا وفيت، ولا أهم إلا مضيت، وأن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وأني أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه."

فقـرأ غلامـه "بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم. مـن عبـد اللـه عبـد الملـك أمـير المؤمنـين إلي مـن بالكوفـة مـن المسـلمين، سـلام عليكـم..

فلم يقل أحد من الحضور شيئًا..

فقال الحجاج اكفف يا غلام..

ثـم أقبـل عـلى النـاس فقـال: يسـلم عليكـم أمـير المؤمنـين فـلا يـرد راد منكـم السـلام، أمـا واللـه لأدبكـم غـير هـذا الأدب.

ثـم قـال للقـارئ: اقـرأ، فلـما قـرأ السـلام عليكـم قالـوا بأجمعهـم: سـلام عـلى أمير المؤمنـين ورحمـة اللـه وبركاتـه، فـإذا انتهـى الحجـاج مـن خطبتـه، دخـل منزلـه ولم يـزد عـلى ذلـك، وتفـرق النـاس وقـد أذهلهـم تهديـده، وأخافتهـم جرأتـه، فقـد سـمعوا منـه شـيئًا جديـدًا لا عهـد لهـم بـه، ولا مثيـل لـه في تاريـخ ولاة الكوفـة إلا مـا كانـوا يسـمعونه عـن زيـاد بـن أبيـه وشـدته، ولكـن زيـادًا، مـا طـاول الحجـاج في مثـل هـذا التهديـد والوعيـد في كثـير ولا قليـل.

وينظـر الحجـاج في أمـره فـإذا هـو أمـام أمـر داهـم، إرسـال النـاس إلى المهلـب مخافـة أن يدهمـه مـن الخـوارج مـا لا قبـل لـه بـه، فيدعـو العرفـاء إليـه ويأمرهـم بإلحـاق النـاس بالمهلـب، وأن يأتـوه بالـبراءة بموافاتهـم، وأمـر بفتـح الجـسر فـلا تغلـق أبوابـه ليـلاً ولا نهـارًا.

ويصـف المـبرد اجتـماع الحجـاج إلى وجـود أهـل الكوفـة بعـد الخطبـة، وسـؤاله إياهـم: مـا كانـت الـولاة تفعـل بالعصـاة؟

فقالوا: كانت تضرب وتحبس.

فقال الحجاج: ولكن ليس لهم عندي إلا السيف، أن المسلمين لو لم يغزوا المشركين لغزاهم المشركون، ولو ساغت المعصية لأهلها ما قوتل عدو، ولا جبي فئ، ولا عز دين.

ثم جلس لتوجيه الناس إلى المهلب وابن مخنف، وقال للناس:

- قـد أجلتكـم ثلاثًـا، واقسـم باللـه لا يتخلـف أحـد مـن أصحـاب ابـن مخنـف بعدهـا، ولا مـن أهـل الثـور إلا قتلتـه. ثـم قـال لصاحـب حرسـه وصاحـب شرطـه:

- إذا مضـت ثلاثـة أيـام فاتخـذوا سـيوفكما عصيًا..\فجـاء عمـير بـن ضـابي. البرجمـي بابنـه وقـال:

- أصلح اللـه الأمـير، إن هـذا أنفـع لكـم منـي، وأنـا في هـذا البعـث ولكنـي كبـير عليـل، وابنـي هـذا أنسـب منـي.

فقـال الحجـاج: أن عـذرك لواضـح وأن ضعفـك لبـين، ولكنـي أكـره أن يجـتري. بـك النـاس عـلي، وبعـد فانـت ابـن ضـابي صاحـب عثـمان، ثـم أمـر بـه فقتـل.

فاحتمـل النـاس، وأن أحدهـم ليتتبـع بـزاده وسـلاحه، وازدحـم النـاس عـلى الجـسر، وخـرج العرفـاء إلى معسـكر المهلـب فأخـذوا منـه كتبًـا بوصـول النـاس إليـه.

الحجاج في البصرة يتوعد بحمام الدماء

وفي أواخـر هـذه السـنة ٧٥ للهجـرة خـرج الحجـاج من الكوفـة إلى البـصرة، فخطب أهلهـا وتوعدهـم بمثـل مـا توعـد بـه أهـل الكوفـة، وتوعـد مـن رآه منهـم بعـد ثلاثـة، ولم يلحـق بالمهلـب، فجـاءه رجـل يعتـذر بمرضـه فـضرب عنقـه، فلـم يبـق بالبـصرة أحـد مـن عسـكر المهلـب إلا لحـق بـه، وتتابـع النـاس مزدحمـين إليـه، حتـى كـثر جمعـه.

وخـرج الحجـاج إلى (رسـتقاباز) وبينهـا وبـين المهلـب ثمانيـة عـشر فرسـخًا، وإنمـا أراد أن يشـد أزر الملهـب وأصحابـه بمكانـه.

ثـم خطـب يومًـا فقـال أن الزيـادة التـي زادكـم إياهـا ابـن الزبـير إنمـا هـي زيـادة مخـسر باطـل ملحـد فاسـق، ولسـنا نجيزها.

وكان مصعب بن الزبير قد زاد الناس في العطاء مائة مائة، فقال عبد الله بن الجارود:

- إنهـا ليسـت بزيـادة ابـن الزبـير، إنمـا هـي زيـادة أمـير المؤمنـين عبـد الملـك قـد أنفذهـا وأجازهـا عـلى يـد أخيـه بـشر.

فقال له الحجاج: ما أنت والكلام لتحسنن حمل رأسك وإلا لأسلبنك إياه.

فقال: ولم؟ فإني لك لناصح وأن هذا القول من ورائي.

فسكت الحجاج عن الزيادة شهرًا، ثم أعاد القول فيها فرد عليه ابن الجارود مثل رده الأول.

وأخـذ بعـض رجـالات العـراق يؤيـدون ابـن الجـارود ويبايعونـه سرًا عـلى إخـراج الحجـاج مـن العـراق، ثـم الكتابـة إلى عبـد الملـك ليـولي أمورهـم غـيره، وأظهـر ابن الجـارود

وجماعتـه أمرهـم في ربيـع الآخـر مـن سـنة ٧٦ للهجـرة، وكان الحجـاج قـد علـم بخبرهـم فاسـتعد لهـم، ولكنـه كان قليـل الرجـال ضعيـف الأعـوان فلـم يكـن بطوقـه والحالـة هـذه أن يحـارب القـوم وقـد ثـاروا جميعًـا ضـده، وكان الثائـرون في الوقت نفسـه لا يريـدون قتله، وإنمـا إخراجـه مـن العـراق، والخـلاص مـن ظلمـه وشـدته، ولكـن الحجـاج صمـد لهـم وأبي مغـادرة العـراق، وراح يتحايـل ليجمـع النـاس حولـه، حتـى تمكـن مـن ضم بعـض العراقيين إليـه فحـارب بهـم ابـن الجـارود وجماعتهـم فغلبهـم، وقبـض عـلى رجـال الثـورة فقطـع رؤوسـهم، وأرسـل إلى المهلـب لتكـون نذيـرًا إلى كل مـن تحدثـه نفسـه بالثـورة والعصيـان.

ثورة عراقية ضد الحجاج

والواقـع أن ثـورة ابـن الجـارود كانـت ثـورة مـن رجـالات العـراق وزعمائهـا عـلى الحجـاج، فقـد أسـاء إليهـم وأمتهنهـم، وأغـرق في إيذائهـم واحتقارهـم، ثـم راح يحـاول تخفيـض مخصصاتهـم مـن بيـت المـال، فثـاروا عليـه، وحاولـوا إخراجـه من العـراق دون مـا حـرب ولا قتـال، لأنهـم في الواقـع لم يكونـوا يريـدون غـير الخـلاص منـه، لأن الثـورة عـلى الخليفـة القائـم، وكانـوا يظنـون أنهـم إذا تمكنـوا مـن إخـراج الحجـاج عنهـم، فـإن أمـير المؤمنـين لابـد وأن يبعـث لهـم غـيره. ويبدلهـم خـيرًا منـه.

ولكـن الثائريـن لم يكونـوا أهـل خـبرة كـما يظهـر في اغتنـام الفـرص السـانحة فـإن حرصهـم عـل سـلامة الحجـاج، وإخراجـه من العراق فحسـب، جعلهـم يسرعـون في مهاجمته، ولـو فعلـوا لـكان للحجـاج في العـراق غـير هـذا التاريـخ الـذي ترويـه عنـه اليـوم.

المهلب بن أبي صفرة والخوارج

شان الخوارج

عرضنا لشأن الخوارج، فتحدثنا عن أمرهم مع ابن الزبير، وكيف أخذوا بعد مغادرتهم يهددون العراق، ويتبسطون في سواده، وكيف كلف أهل البصرة المهلب بن أبي صفره حربهم، وكيف قبل ذلك على أن تكون له ولاية ما غلب عليه، وأن يعطي من بيت المال ما يقوى به هو ومن معه على محاربتهم، وأن ينتخب من وجوه الناس وفرسانهم وذوي الشرف من أحبه، فأجابوه إلى ما طلب...

ودارت رحى القتال بين الخوارج وبين أهل البصرة بقيادة المهلب بن أبي صفرة، فدارت الدائرة على الخوارج وقتل زعيمهم، فانحازوا إلى نواحي كرمان وأصفهان، ولم يزل الملهب يطاردهم حتى تولى مصعب بن الزبير العراق فولاه الجزيرة وولي على حرب الخوارج عمر بن عبيد بن معمر، فحاربهم مدة حتى أجلاهم إلى أصفهان حيث جمع الخوارج شملهم واتوا سابور فسار إليهم قائد ابن الزبير وهزمهم، غير أنه لم يكن في حزم المهلب ودهائه، فعاد أمر الخوارج يظهر ويفشو، وعاثوا في الأرض فسادًا وقتلوا الأطفال والنساء وجبوا الخراج، فلم ير أهل العراق بدًا من أن يطلبوا إلى مصعب إرجاع المهلب لقتالهم فعاد المهلب إليه وتلاقى بهم وعلى رأسهم قطري بن الفجادة ودار القتال بينه وبينهم ثمانية أشهر صمد لهم المهلب صمودًا قويًا شديداً.

ويقتل مصعب بن الزبير، ويصفو الجو لعبد الملك بن مروان، فيولي خالد بن عبد الله بن أسيد بلاد العراق، فيصرف هذا المهلب عن حرب الخوارج، ويرسل أخاه لحربهم، فيهزمه الخوارج هزيمة منكرة، فيغضب عبد الملك، ويكتب إلى عامله يؤنبه ويقبح رأيه في إبعاد المهلب ويأمره بإسناد حربهم إليه، فيعود المهلب إلى حرب الخوارج سنة ٧٢ للهجرة والحرب سجال بينه وبينهم.

ويبعث عبد الملك بالحجاج إلى العراق ليعمل والمهلب سوية للقضاء على الخوارج، فيأتي الحجاج إلى العراق كما قدمنا، ويأخذ الناس بالشدة، ويبعثهم إلى مساندة المهلب في حروبه وزحوفه، وقد عرفنا شأن الحجاج فمن هو المهلب؟؟

المهلب بن أبي صفرة

كان أبـو صفـرة والـد المهلـب مـن الأعـراب الذيـن نزلـوا البـصرة في عهـد الخليفـة الأول أبي بكـر الصديـق، وولـد لـه المهلـب بهـا فربـاه تربيـة عاليـة، فظهـر بـين النـاس سـيدًا نيـلاً وفارسًـا مغـوارًا وشـجاعًا مقدامًـا..

وظهـر المهلـب بـين النـاس كرجـل حـرب وكفـاح، يحسـن الإدارة، ويحسـن الزحـوف والهجـوم، حتـى لقـد أعجـز الخـوارج وضايقهـم، ولم يمكنهـم مـن نفسـه وجنـده، وكان في وقائعـه معهـم يحكـم تدبـير حركـة الجيـوش، ويخنـدق عليهـم، ويضـع المسـالح ويـذكي العيـون، ويقيـم الأحـراس، ولا ينـزل بلـدًا ولا يعسـكر في مـكان إلا وعسـكره عـلى تربيتهـم ومصافهـم، وقـواه عـلى راياتهـم، والموكلـون بالحـرب على أبـواب الخنـادق وأفـواه الطرق.

وكان الخـوارج إذا أرادوا أن يبيتـوه أو يهاجمـوه، وجـدوا أمـرًا محكمًا فلم يقاتلهم إنسـان قـط كان أشـد عليهم ولا أغيظ لقلوبهم منـه، كادهم بالحيل، ومزق جموعهم بالحـروب، وكان يسـاعده في تلـك الوقائـع بنـوه الأبطـال وكلهـم عـلى غـراره بأسًـا وقـوة وجـرأة، ولبـث يقاتـل الخـوارج هـو وبنـوه وجنـوده زهـاء اثنتـي عـشرة سـنة، حتـى شـنت شـملهم، وكان الحجـاج أثنـاء ذلـك يرسـل إليه الرسـل أثر الرسـل ليسـتحثوه بالقتال، ويبعـث إليه بالكتـب تلو الكتب يثـير بهـا حميتـه، ويهيجـه بقـوارص الكلـم، فـما كان يزيـد عـلى أن يفـرق مـع بنيـه في الجنود ليشـاهدوا قتالهـم مـع الخـوارج، فـكان بعـض الرسـل يقتلـون وبعضهـم يهربـون مـن هـول الحـرب، وكانـت أجوبتـه عـلى كتـب الحجـاج أن سـل رسـلك يخـبروك كيـف نقاتـل الخـوارج ويقاتلوننـا، وكان الرسـل يرجعـون إلى الحجـاج ويقولـون لـه: رأينـا قومًا لا يعين عليهـم إلا الله.

وأغلـظ الحجـاج القـول للمهلـب ذات مـرة، في كتـاب كتبه يأمـره في آخـره أن يلقى الخـوارج يـوم كـذا في مـكان كـذا، وإلا أشرع إليـه صـدر الرمـح، فأغلظ له المهلب في الجـواب، وكتـب في آخره.

"وزعمـت أني إن لم ألقهـم يـوم كـذا في مـكان كـذا أشرعـت إلي صـدر الرمـح. فلـو فعلـت لقلبـت إليـك ظهـر المجـن والسـلام."

وفي بعـض المـرات وجـه إليـه الجـراح بـن عبـد اللـه يسـتبطئه في مناجـزة القـوم، وكتب إليـه:" "أمـا بعـد فإنـك جبيـت الخـراج بالعلـل، وتحصنـت بالخنـادق، وطاولـت القـوم، وأنت أعـز ناصًـا، وأكـثر عـددًا، ولا أظـن فيـك مـع هـذا، معصيـة ولا جنبًـا، ولكنـك اتخـذت أُكلاً وكان

بقاؤهـم أيـسر عليـك مـن قتالهم. فناجزهـم وإلا أنكرتني والسـلام" فقـال المهلب للجـراح: "يا أبـا عقبـة، واللـه مـا تركـت حيلـة إلا احتلتهـا، ولا مكيـدة إلا عملتهـا، ومـا العجـب مـن إبطاء النـصر وتراخـي الظفـر، ولكـن العجـب أن يكـون الـرأي لمـن يملكـه دون مـن يبـصره" ثـم ناهـض الخـوارج يغاديهـم القتـال إلى الـرواح، أمـا عين الرسـول، فينـصرف أصحابه وبهـم قروح ومنهـم قتـلى، فقـال للرسـول: كيـف رأيت؟ قـال: قد أعـذرت. وكتب المهلـب إلى الحجـاج: أتاني كتابـك تسـتبطئني في لقـاء القـوم، عـلى أنـك لا تظـن بي معصيـة ولا جبنًـا. وعاتبتنـي معاتبـة الجبـان، وأوعدتنـي وعيـد العـاصي، فاسـأل الجـراح والسـلام. فقـال الحجـاج للجـراح: كيـف رأيـت أخـاك؟ قـال: واللـه مـا رأيـت أيهـا الأمير، مثلـه قـط. ولا ظننـت أن أحدًا يبقـى على مثل مـا هـو عليـه: شـهدت أصحابـه أيامًا ثلاثـة، يغـدون إلى الحرب، ثـم ينصرفون عنهـا، يتطاعنون بالرمـح، ويتضاربـون بالسـيوف، ويتخابطـون بالعمـد، ثم يروحـون كأن لم يصنعوا شـيئًا.

فقال الحجاج: لشد ما مدحته، أيا عقبة!

قال: الحق أولى.

وكان الخـوارج يسـمون المهلـب السـاحر: لأنهـم كانـوا يدبـرون الأمـر فيجدونـه قـد سـبق إلى نقـض تدبيرهـم، وكانـوا يسـمونه الأعـور لأنـه أصيـب بعينـه في غـزوة سـمر قنـد مـع سـعيد بـن عثمان بـن عفـان رضي اللـه عنـه في خلافـة معاويـة سـنة ٥٦.

وكانـوا يسـمونه الكـذاب: لأنـه كان فقيهًـا، وكان يعلـم مـا جـاء عـن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم مـن قولـه: كل كذب يكتـب كذبًـا، إلا ثلاثـة: الكـذب في الصلح بـين الرجلين، وكـذب الرجـل لامرأتـه يعدهـا، وكـذب الرجـل في الحـرب يتوعـد ويتهـدد. وقوله عليـه الصلاة والسـلام: إنمـا أنـت رجـل فخـذل عنـا: فإنمـا الحـرب خدعـة، وغـير ذلـك. فـكان المهلـب ربمـا صنـع الحديـث ليشـد بـه مـن أمر المسـلمين، ويضعـف من أمـر الخـوارج. وليـس المـراد وضع الأحاديـث عـن النبـي صـلى اللـه عليـه وسـلم، بـل المـراد أحاديـث الحـرب لتخذيـل الأعـداء.

وهـو مخـترع الرُكـب الحديديـة، وكانـت الركـب تصنـع مـن الخشـب، فـكان الرجـل يعتمـد عـلى الـركاب منهـا في الـضرب والطعـن فينقطـع فيبقـى بـلا معتمـد، فأمـر المهلـب فضربـت مـن الحديـد.

ولما انتهى المهلب من أمر الخوارج وجه إلى الحجاج كعب ابن معدات الأشقري ليبشره بالانتصار عليهم وتمزيق شملهم.

فأقبل عليه الحجاج وقال له، في حديث طويل: أخبرني عن بني المهلب. قال: "المغيرة" فارسهم، وكفى "بيزيد" فارسًا شجاعًا، وجوادهم "قبيصة" ولا يستحي الشجاع أن يفر من "مدرك"، و "عبد الملك" ناقع، و"حبيب" موت زعاف، و "محمد" ليث غاب، وكفاك "بالمفضل" نجدة.

ولما جمع عبد الملك بن مروان إلى الحجاج خراسان وسجستان والعراق، استعمل الحجاج المهلب على خراسان، فلم يزل واليًا عليها حتى أدركته الوفاة سنة ٨٢.

ثم استقدم الحجاج المهلب وأجلسه بجانبه، وأظهر إكرامه وبره، وقال: يا أهل العراق، أنتم عبيد المهلب. قال ذلك لأنه لولا المهلب لاستولى الخوارج على العراق، ولولاه لسقطت البصرة في أيديهم، ولذلك تسمى بصرة المهلب.

وكان للمهلب كلمات لطيفة وإشارات مليحة تدل على مكارمه ورغبته في حسن السمعة والثناء الجميل، فمن ذلك قوله: "الحياة خير من الموت. والثناء الحسن خير من الحياة. ولو أعطيت ما لم يعط أحد لأحببت أنتكون لي أذن أسمع ما يقال بها ما يقال في غدًا إذا مت...".

المهلب والخوارج

ولقد عرضنا إلى أول حروب المهلب مع الخوارج ويوم خرج إلى الأزارقة بجيشه وكانوا قد انتهوا إلى الجسر الأصغر وعليهم عبيد الله ابن الماحوز، فحصلت بين الفريقين معارك متعددة تمكن المهلب في آخرها من دفعهم نحو الأهواز، وقد ضاق صدر الخوارج ذرعًا بالمهلب إذ كان لا يمكنهم نفسه ولا جيشه كما قدمنا، فهو أبدًا على استعداد لملاقاتهم ومحاربتهم، وقد حدث أن أرادوا مهاجمته ليلاً في إحدى المعارك التي حدثت في سنة ٦٥ للهجرة، فأرسلوا إلى جناحه الأيسر عبيدة بن هلال، وذهب إلى جناحه الأيمن الزبير بن المحاحوز، ومع كل منهما عدد عظيم من المقاتلة، فلما بلغوا إلى جيشه صاحوا وكبروا فوجدوه على تعبية، والجنود على مصافهم حذرين مستعدين فلم يصيبوا منه غرة، ولم يظفروا منه بشيئ،، وتمكن المهلب من تشتيتهم وقتل رئيسهم عبيد الله بن الماحوز، فانكفأوا راجعين محرومين مغلوبين إلى كرمان وجانب أصبهان، وكان المغيرة بن المهلب في

هـذه الواقعـة، إذا نظـر إلى الرمـاح قـد تشـاجرت في وجهـه نكـس عـلى سرجه وحمـل من تحتها فيراهـا بسـيفه، ومـزق ميمنة جيـش الخـوارج، وكان أشـد ما تكون الحرب أشـد ما يكـون انطلاقًا وسرورًا، وكان المهلـب يقـول فيـه: مـا شـهد معـي حربًـا قـط إلا رأيـت البـشر في وجهـه.

وتشـتد المعـارك بـين المهلب والخـوارج، فلا يوفقوا معه في كثـير ولا قليل، وفي سـنة ٦٧ نراهم في أرجـان وقـد بايعـوا الزبـير بن الماحوز بعد مقتل رئيسـهم عبد اللـه بن الماحوز، يعـاودون المهلب فيكسرهم ويشـتت شـملهم فيعودون إلى أصبهان، ويتوجه الملهب نحو الوصل.

وفي أواخـر ٦٨ هـ يعـود المهلـب إلى قتـال الخـوارج وقـد بايعـوا قطـري بـن الفجـاءة وقد سـاروا إلى كرمـان فلحقهـم وحاربهـم في (سـولاف) ثمانيـة أشـهر أشـد قتـال رآه النـاس، وقتـل في هـذه الوقائـع كثـير مـن أصحـاب المهلـب، وثبـت فيهـا المهلـب وابـن المغـيرة، وفي هـذه الأثنـاء يتغلـب عبـد الملـك عـلى العـراق ويـولي عـلى البـصرة خالـد بـن عبـد الله بـن خالـد ابن أسـيد، فبعـث شـقيقه عبـد العزيـز لقتال الخـوارج مع جيـش عليه مقاتل بـن مسـمع، وصرف المهلب إلى الأهـواز، فأرسـل إليـه قطـري تسـعمائة فـاوًس، فاسـتقبلوا عبـد العزيـز بفـارس وهـو يجـري بجيشـه مـن غـير تعبية فهزمـوه وقتلـوا مقاتل بن مسـع وأخـذوا امـرأة عبـد العزيز، وقـد ذكرنا كيـف أن عبـد الملـك بـن مـروان غضـب لمـا علـم بخـبر هـذا الفضـل وأمـر والي البـصرة خالد بن عبـد اللـه أن يأخـذ المهلـب في حـرب الخـوارج، وأن لا يخـرج عـن رأيـه ، وأمـر عبـد الملـك خالـدًا أن يخـرج إلى الأزارقـة بنفسـه، وكتـب إلى بـشر بـن مـروان عاملـه عـلى الكوفـة أن يمـده بجيـش مـن عنـده، فأمـده ببضعـة آلاف عليهـم عبـد الرحمن محمد بن الأشـعث. فخرج خالد بجيشـه ومـن معـه مـن أهـل الكوفـة، والتقـوا بالأزراقـة بالقـرب مـن الأهـواز، وأشـار المهلـب عـلى عبـد الرحمـن أن يخنـدق عـلى جيشـه. فقـال لـه: واللـه لهـم أهـون عـلي مـن ضرطـة الجمـل. فقال المهلـب: يـا ابـن أخـي، لا يهونـوا عليـك فإنهم سـباع العـرب، ولم يتركه حتى خنـدق. ثـم أن خالدًا زحـف إلى الخـوارج بالنـاس فـرأوا مـا لهـم، واقتتـل الفريقـان قتـالاً شـديدًا فانتـصر جيـش خالد، وهزمـوا الخـوارج واتبعوهـم يقتلونهـم ويسـلبونهم. ثـم أرسـل خالـد وراءهـم داود بـن قحـذم ليسـتأصلهم وكتـب بذلـك إلى عبـد الملـك، فأمـر عبـد الملـك أخاه بـشر بـن مـروان أن يبعث من قبلـه رجـلاً شـجاعًا بصـيرًا بالحـرب في أربعة آلاف فـارس ليضـم إلى داود بن قحـذم ويكون تحت إمرتـه فأرسـل بـشر بـن مـروان، عتاب بـن ورقـاء في أربعـة آلاف مـن أهل الكوفـة، فخرجوا حتى

التقـوا بـداود بـن ورقـاء في أربعـة آلاف مـن أهـل الكوفـة، فخرجوا حتى التقـوا بـداود بن قحذم بـأرض فـارس، ثـم اتبعـوا القوم يطلبونهم حتـى نفقت خيول عامتهـم، وأصابهم الجهـد والجوع، ورجـع عامـة الجيشـين مشـاة إلى الأهـوار سـنة ٨٢ للهجرة.

هـذه هـي أخبـار المعـارك التـي وقعـت مـع الخـوارج حتـى نـزول الحجـاج إلى العـراق، وإرسـاله البعـوث إلى المهلـب لمحاربـة الخـوارج وإفنائهـم.

الحجاج والخوارج

يظهـر للمـؤرخ الـذي يتتبـع أخبـار الخـوارج وغاراتهـم وكراتهـم وفراتهـم وزحوفهـم أن المهلـب ابـن أبي صفـرة قائـد جيـش العـراق كان أكـثر القـواد حظًـا معهـم، وأبعدهـم تمزيقًـا فيهـم وتأثـيرًا في إفنائهـم، فـما كاد يصـل الحجـاج إلى العـراق حتـى تمكـن الخـوارج مـن تمزيـق جيـش عبـد الرحمـن بـن مخنـف القائـد الثـاني الـذي كان يقاتـل الخـوارج مـع المهلـب وقتلـه، ولم يوفقـوا مـع المهلـب في كثـير ولا قليـل. فكتـب المهلـب إلى الحجـاج بخـبر الفاجعـة، فبعـث الحجـاج عـلى جيـش عبـد الرحمـن عتـاب بـن ورقـاء ثـم اسـتقدمه إليـه وضـم جيشـه إلى جيـش المهلـب فأمـر عليـه ابنـه حبيبًـا.

ولعـل مـن أروع مـا في تاريـخ الخـوارج زحـوف شـيب بـن يزيـد الخارجـي وحروبـه مـع ولاة الحجـاج، فـإن فيهـا لونـاً جديـداً مـن ألـوان التضحيـة والجـرأة والبسـالة والإيمـان بالعقيـدة مـما لا يـرى القـارئ مثلـه في تاريـخ جماعـة غـير الخـوارج، ولا يـرى لـه نظـير في غـير تاريـخ الجماعيـة الإسـلامية الأولى التـي خرجـت لتنـشر ديـن اللـه في الأرض، ولـتروج لـتراث محمـد "ص" مـن مـشرق الأرض إلى مغربهـا... ونظـن صنعـاً إذا عرضنـا لأخبـار شـبيب بشـيئ مـن التفصيـل فإن أخبـار الخـوارج موزعـة في كتـب الأدب والتاريـخ بحيث يصعـب جمعهـا في صعيـد أحـد عـلى القـارئ فـإذا نحـن بسـطنا أخبارهـم، وتلطفنـا في ترجمـة زحوفهـم فيـه حـوادث الخـوارج عـلى غيرهـا وسـواها.

تحـرك في سـنة ٧٥ للخـروج رجـل مـن بنـي أمـرئ القيـس يقـال لـه صالـح بـن مـسرح – وكان يـرى رأي الصفريـة – وقيـل أنـه أول مـن خـرج منهـم، فحـج في هـذه السـنة، ومعـه أبـو الضحـاك شـبيب بـن يزيـد الشـيباني وسـويد، والبطـين، وأشـباههم

مـن الخـوارج، وكان عبـد الملـك بـن مـروان حـج في هـذا العـام، فهـم شـبيب بالفتـك بـه، ولكنـه لم يتمكـن مـن ذلـك، وكان صالـح ابـن مـسرح المذكـور ناسـكًا خاشـعًا مصفـر الوجـه، صاحـب عبـادة، وكان يقيـم بـأرض الموصـل، ولـه أصحـاب يقرئهـم القـرآن، ويفقههـم في الديـن، ويقـص عليهـم القصـص، ومـن جملـة مـا كان يقـص عليهـم اسـتئثار عثمان بـن عفـان، وتعطيلـه الحـدود، والجـور في الحكـم، واسـتذلال المؤمنـين وتعزيـز المجرمـين، ومـن جملـة ذلـك أيضًـا تحكيـم عـلى - كـرم اللـه وجهـه - الرجـال في أمـر اللـه والشـك في أهـل الضـلال والركـون إليهـم والادهـان، وصـار يتـبرأ مـن هذيـن الإمامـين ومن ولاة الأمـور بعدهـما، ويسـميهم أئمـة الضـلال الظلمـة، ويدعـو أصحابـه للخـروج مـن دار الفنـاء إلى دار البقـاء واللحـاق بإخوانهـم المؤمنـين الذيـن باعـوا الدنيـا بالآخـرة وجاهـدوا بأموالهـم وأنفسـهم التماسًـا لرضـوان اللـه، ورغـب إلى أصحابـه أن يراسـلوا كل مـن كان عـلى رأيهـم ليوافوهـم للخـروج عـلى الـولاة، وبينـما هـم في ذلـك إذ قـدم عـلي صالـح، بن المحلـل بـن وائـل اليشـكري بكتـاب مـن أبي الضحـاك شـبيب بـن يزيـد الخارجـي يعـرض فيـه الانضـمام إلى صالـح وأصحابـه، وأن يكـون صالـح أمـير المؤمنـين وشـيخ المسـلمين. فاسـتجاب لـه صالـح وكتـب إليـه بحثـه عـلى الإسراع بإقبـال إليـه. فجمـع شـبيب أصحابه وقـدم عـلى صالـح وتواعـد الجميـع الخـروج في صفـر سـنة ٧٦.

خروج الخوارج

ولمـا جـاء الميعـاد اجتمعـوا وهمـوا بالخـروج، ورأى شـبيب اسـتعراض النـاس وقتـل كل مـن يعـرض لهـم ممـن لا يـرى رأيهـم. فمنعـه صالـح وقـال لـه:

- بل تدعوهم فإن من يرى رأينا محبينا. ومن لم يرى رأينا فنحن في حل من قتله.

ولما ابتـدءوا في الخـروج وكانـوا نحـو من مائـة وعشرين معظمهم رجالـة، وكان لمحمد بن مـروان دواب في رسـتاق بتلـك الجهة فشـدواعليها وأخذوها فحملـوا رجالتهم عليها، وبلغ محمد مـروان خروجهـم، وهـو يومئـذ أمـير الجزيـرة، فاسـتخف بأمرهـم وأرسـل إليهم عـدي بن عميرة في ألـف فـار مـن حـران وكان عـدي يتنسـك، فخـرج إلى صالـح المتنسـك وكأنمـا يسـاق إلى الموت، ودس إلى صالـح رجلاً يدعـوه إلى الخـروج إلى بلـد آخـر، ويعلمـه أن عديًا يكره قتالـه، وإن لم يكن عـلى رأيـه، فحبـس صالـح الرسـول وانقـض عـلى عـدي، وهو قائـم يصلي الضحى،وحمل شـبيب

وسويد عليه وعلى عسكره وهم غارون، فانهزموا بلا قتال، وركب عدي فرسه ومضى على وجهه، ورجع قله إلى محمد بن مروان، فغضب وأرسل إلى الخوارج خالد بن جزء الشامي في ألف وخمسمائة، والحارث بن جعونة في ألف وخمسمائة، فخرجا إليهم واقتتل الفريقان أشد قتال، فترجل خالد والحارث ومن معهما واستقبلوا الخوارج بالرماح، ورشقتهم رماتهم بالنبل، وطاردتهم خيلهم، وفشت الجراحة في الجيشين، وكثرت فيها القتلى، فلما أمسوا رجعوا إلى عسكرهم، وتشاور الخوارج فيما بينهم، فقر رأيهم على أن يخرجوا من تحت ليلتهم سائرين. فمضوا حتى قطعوا أرض الجزيرة ودخلوا في أرض الموصل، فلما بلغ الحجاج ذلك سرح إليهم الحارث بن عميرة الهمذاني في ثلاثة آلاف رجل من أهل الكوفة: ألف من المقاتلة الأولى، وألفين من الفرض الذي فرضه الحجاج، فلحقوهم في قرية يقال لها المدبج، على التخوم بين أرض الموصل وأرض جوخا، واقتتلوا فقتل صالح وثبت شبيب مع جماعة وجاء حتى انتهى إلى موقف صالح فوجده قتيلاً، فأمر العسكر بأن يجعل كل رجل منهم ظهره إلى ظهر صاحبه ويطاعنوا عدوهم إلى أن يدخلوا حصنًا هناك، ففعلوا ودخلوا الحصن، وأحاط بهم الحارس ممسيًا، فجمع شبيب أصحابه وطلب منهم أن يبايعوا من شاؤوا بعد صالح، ويخرج بهم ليلاً ليشدوا على الحارث وعسكر فبايعوه هو، وخرج بهم فلم يشعر الحارث حتى صرع. واحتمله أصحابه وانهزموا ومضوا حتى نزلوا المدائن، فكان ذلك الجيش أو جيش هزمه شبيب ثم ارتفع بأصحابه إلى أرض الموصل ثم إلى أذربيجان.

انتصارات شبيب

وكان الحجاج قد كتب إلى سفيان بن أبي العالية أن ينزل الدسكرة "وهي قرية كبيرة غرب بغداد" فيمن معه ويقيم بها حتى يأتيه جيش الحارث بن عميرة الهمذاني الذي قتل صالح بن مسرح، ويأتيه جيش آخر عليه سورة بن ابجر التميمي، ثم يسير بعد أن تجتمع إليه هذه الجيوش إلى شبيب ويناجزه.

وأمر الحجاج بأن ينادي في جيش الحارث بن عميرة بالكوفة: إن برئت الذمة من كل من لم يواف جيش سفيان بن أبي العالية. فأتاه جيش الحارث، إلا سورة ابن ابجر فإنه تخلف عنه مع خمسين رجلاً، وأرسل إلى سفيان أن لا يبرح حتى يأتيه، فتعجل سفيان وارتحل في طلب شبيب فلحقه بخانقين، في سفح

جبل، فأكمن له شبيب أخاه، واستطرد له يريه أنه ينهزم، فاتبعه سفيان – وكان عدي بن عميرة الشيباني أشار عليه بأن يأخذ حذره من الكمين فلم يسمع له – حتى إذا توسط بمين الكمين وبين شبيب، رجع إليه شبيب وثار عليه مصاد فهزم هو وجيشه، وصرع سفيان وكاد يقتل، لولا أن حمله غلام له على فرسه، وصار يدافع عنه حتى نجا، وقتل الغلام.. وكتب سفيان إلى الحجاج بما جرى له، فاستحسن فعله، ولام سورة بن ابجر على تخلفه، وأمره أن ينتخب رجلاً ممن معه إلى الخيل التي بالمدائن لينتخب منها خمسمائة فارس ليسير سورة بها إلى الخوارج، وأن يستعمل الحزم في أمره والكيد لعدوه، فإن أفضل الحرب حسن المكيدة، فخرج سورة في طلب شبيب، وشبيب يجول في جونجا، حتى انتهى إلى المدائن، ومنها إلى النهروان، فنزل بها هو وأصحابه وصولا بها، وأتوا إلى مصارع إخوانهم الذين قتلهم علي رضوان الله عليه فاستغفروا لإخوانهم وتبرأوا من علي وأصحابه وبكوا أطول بكاء، ثم خرجوا فقطعوا جسر النهروان فنزلوا من جانبه الشرقي، وجاء سورة فأخبره عيونه بموضع الخوارج، فاختار من أصحابه ثلاثمائة من أهل الجلد ولقوة والشجاعة وحملوا عليهم فثبتوا لهم وقاتلوهم قتالاً شديدًا فهزموهم،ورجع سورة بأصحابه إلى المدائن واتبعهم الخوارج ، فخرج إليهم أهل المدائن ورموهم بالنبل والحجارة، فارتفع شبيب بأصحابه عن المدائن وخرج يسير في أرض جوخا، ثم مضى نحو تكريت. وأرجف الناس في المدائن أن شبيبًا قد دنا يريد أن يبيت أهل المدائن، فارتحل عامة الجيش الذي كان بها فلحقوا بالكوفة، فلما رأى الحجاج ذلك قال: قبح الله سورة ضيع العسكر والجند. ودعا بعثمان بن سعيد المعروف بالجزل وأرسله إلى الخوارج في أربعة آلاف، فمضى الجزل، وقدم بين يديه عياض بن أبي لينة الكندي على مقدمته، ثم تبعه الجزل، ومضوا في أثر شبيب في أرض جوخا، فجعل شبيب يستطرد له من قرية إلى قرية، ومن ناحية إلى أخرى، ليفرق عنه أصحابه فيلقاه في يسير من الناس على غير تعبية، وجعل الجزل لا يسير إلا على تعبية ولا ينزل إلا خندق على نفسه، وأراد شبيب أن يبيت الجزل وأصحابه، فعبى أصحابه – وكانوا مائة

وستين - وجعلهم كراديس، كل كردوس أربعون رجلاً، وجعل لكل كردوس أميرًا، فبيتوا عسكر الجزل فوجدوهم محترسين واضعين بكل جهة مسلحة، فتركوهم ومضوا إلي جرجرايا. وأرسل الحجاج إلى الجزل يستحثه على قتالهم، فخرج في جيشه يجدون في طلبهم، وبعث الحجاج سعيد بن المجالد ليقاتلهم مع الجزل، وأن يطلبهم طلب السبع، ويحيد عنهم حيدان الضبع، فلما انتهى سعيد إلى الجزل عزم على أن يخرج إلى الخوارج في الحال، وأشار عليه الجزل بالتؤدة وأحكام التدبير فلم يسمع له، فبرئ من رأيه وألقى عليه تبعة تسرعه.. فخرج سعيد وأخرج الناس معه - وقد أخذ شبيب إلى براز الروز، فنزل قطيطًا، وأمر دهقانها أن يشتري لهم ما يصلحهم ويتخذ لهم غداء ففعل، وأمر شبيب بباب المدينة فأغلق، فلم يمض إلا قليل من الزمن حتى أتى سعيد في أهل ذلك العسكر، فصعد الدهقان السور ونظر إلى الجند مقبلين، فنزل - وقد تغير لونه - وأخبر شبيبًا بأن الجنود أتته من كل ناحية.

فقال له: لا بأس. هل أدرك غداؤنا؟

قال: نعم، فتغدوا وصلوا ثم خرجوا إلى جيش سعيد. وحمل شبيب على سعيد فقتله، وحمل الخوارج على من معه فقتلوا منهم كثيرًا. وفر الباقون حتى انتهوا إلى الجزل، فجمع الجزل جميع من معه وقاتلوا الخوارج قتالاً شديدًا، وأبلى الجزل بلاء حسنًا، ولا زال يقاتل حتى جرح وحمل إلى المدائن جريحًا، وانهزم الجيش ورجع إلى الكوفة مفلولاً، وكتب الجزل إلى الحجاج بما جرى من تؤدته وعجلة سعيد، وما تم من قتل سعيد وانهزام اليش.

ولما قرأ الحجاج كتاب الجزل استحسن فعله ورضي ما صنعه سعيد وترحم عليه، وأرسل إلى لجزل طبيبًا يداويه من جراحة وألفي درهم ينفقها في حاجته.

ثم أقبل شبيب نحو المدائن، فوجد أهلها متحصنين فيها ولا سبيل إليهم، فراح إلى الكرخ، وعبر دجلة وآمن أهل سوق بغداد - وكانوا يخافونه - وخرج سويد بن عبد الرحمن السعدي في أثره من قبل الحجاج، ولازال يطارده حتى قطع بيوت الكوفة، إلى الحيرة. واستمر شبيب في سيره إلى الانبار ثم ارتفع إلى أذربيجان. فتركه الحجاج هناك وخرج إلى البصرة، واستخلف على الكوفة، عروة بن المغيرة بن شعبة، فأتى عروة كتاب

مـن دهقـان بايـلي يخـبره فيـه أن شـبيبًا عازم عـلى أن يدخـل الكوفة، في الشـهر المقبل فأرسـل عـروة إلى الحجـاج بكتـاب الدهقـان، فرجـع الحجـاج إلى لكوفـة مـن فـوره، وأقبـل شـبيب يسـير حتـى انتهـى إلى قريـة يقـال لهـا حـربى، على شـاطئ دلـة، فتطير منهـا أصحابـه لإيذانها بالحـرب، وقـال هـو: حـرب يصـلى بهـا عدوكـم وحـرب تدخلونـه بيوتهم. ثـم نزل عقـر قوف.

فقال له أصحابه: يا أمير المؤمنين لو تحولت بنا من هذه القرية المشؤومة الاسم.

فقـال: إنمـا شـؤمها إن شـاء اللـه عـلى عدوكـم: فالعقـر لهـم. ثـم سـار حتـى انتهـى إلى سـبخة الكوفـة، فسـبقه الحجـاج ودخلهـا عنـد الظهـر. وبعـد أن صـلى شـبيب وأصحابه العشـاء وأصابـوا يسـيرًا مـن الطعـام ركبـوا خيولهـم ودخلـوا الكوفـة. وشـد شـبيب حتـى ضرب قـصر الإمـارة بعمـوده فأثـر فيـه أثـرًا عظيـمًا.

دخول شبيب إلى الكوفة

ثـم اقتحمـوا المسـجد الأعظـم فقتلـوا مـن كانـوا يصلـون فيـه، فنـادى الحجـاج في النـاس بالنفـير، وجـرد عـلي الخـوارج عدة أمـراء اجتمعوا بجيوشـهم في أسـفل الفـرات، فترك شـبيب الوجـه الـذي هـو فيـه وأخـذ نحـو القادسـية.

فوجـه إليـه الحجـاج بزحـر بـن قيـس فيـما يقـرب مـن ألـف وثمانمائـة فـارس مـن نقـاوة الفرسـان، وأمـره باتبـاع شـبيب ومواقعتـه حيثـما يدركـه، فالتقـى زحـر بشـبيب في السـيلحين وتقاتـل الجيشـان فانهـزم زحـر وأصحابـه وجـرح زحـر، ثـم أقبـل الخـوارج عـلى المذكوريـن آنفًـا، وهـم عـلى نحـو أربعـة وعشريـن فرسـخًا مـن الكوفـة، فقاتلوهـم قتـالاً شـديدًا وقتـل بعـض الأمـراء وجـرح بعضهـم، ووضـع السـيف في عسـاكرهم، ثـم أمـر شـبيب برفـع السـيف عنهـم ودعوتهـم إلى بيعتـه فبايعـه بعضهـم بالليـل، فلـما أصبـح الصبـح هربـوا، ثـم أخـذ شـبيب نحـو نفـر، وبلـغ الحجـاج مـا كان مـن أمـره فهالـه، وظـن أنـه يريـد المدائـن – وهـي بـاب الكوفـة – مـن أخذهـا فتحـت لـه الكوفـة. فبعـث إلى عثـمان بـن قطـن وولاه المدائـن. ليمنعهـا الخـوارج، ودعـا بعبـد الرحمـن بـن محمـد بـن الأشـعث فأمـره بانتخـاب سـتة آلاف مـن فرسـان النـاس ووجوههـم، واسـتحثه عـلى مواقعـة الخـوارج. وكتـب إلى العسـكر يتوعدهـم بالإيقـاع بمـن يهـرب منهـم بأشـد مـن إيقـاع العـدو، فخـرج عبـد المطلـب يطلـب شـيئًا، فارتفـع

عنـه شـبيب إلى شـهر زور. ولحقـه عبـد الرحمـن، وصـار شـبيب لا يلقـاه إلى وجـده علـى تعبيـة أو في خنـدق فـلا يصيـب لـه غـرة ولا يعـثر منـه عـلى علـة، فصـار كلـما دنـا منـه يتركـه ويمـضي حتـى عـذب عسـكره وأخفـى دوابهـم ولقـوا منـه كل بـلاء، إلى أن وصـل إلى قريـة عـلي تخـوم أرض الموصـل يقـال لهـا (البـت(ليـس بينهـا وبـين الكوفـة، إلا نهـر حولايـا، فنـزل بهـا ونـزل عبـد الرحمـن في راذان الأعـلى، مـن أرض جوخـا، فأرسـل إليـه شـبيب أن يوادعـه في أيـام العيـد فأجابـه عبـد الرحمـن إلى ذلـك، فكتـب عثـمان بـن قطـن إلى الحجـاج يخـبره بذلـك، فأمـره الحجـاج بتـولي رئاسـة الجيـش وأرسـل مكانـه عـلى المدائـن، مطـرف بـن المغـيرة ابـن شـعبة. فـأتى عثـمان الجيـش وأراد أن يناجـز الخـوارج في الحـال فلـم يسـاعده الجـو إذ كانـت الريـاح شـديدة، وكانـت تهـب عـلى الجيـش، فأقـام يومًـا وليلـة وحتـى هـدأت الريـاح، ثـم عبـى جيشـه وزحـف بـه عـلى شـبيب، وزحـف شـبيب بأصحابـه عليـه، وكانـوا نحـو مائـة وثمانـين رجـلاص. فهـزم الخـوارج جنـود عثـمان ووضعـوا السـيف فيهـم، وقتلـوا معظـم عرفائهـم، ثـم رفعـوا السـيف عنهـم ودعوهـم إلى البيعـة لشـبيب فبايعـه كثـير منهـم، ورجـع عبـد الرحمـن بـن محمـد بـن الأشـعث إلى الكوفـة، فاختبـأ مـن الحجـاج حتـى أخـذ منـه الأمـان، وكان ذلـك سـنة ٧٧ للهجـرة.

وبعـد أن هـزم شـبيب جيـش عبـد الرحمـن وقتـل عثـمان بـن قطـن وكان ذلـك في صيـف شـديد الحـر، أتى مـاه بهـراذان، فصيـف بهـا ثلاثـة أشـهر، واتـاه نـاس كثـير ممـن يطلـب الدنيـا، وممـن كان الحجـاج يطالبهـم بمـال أو غـيره فلحقـوا بـه، ولمـا انفسـخ الحـر عـن شـبيب خـرج مـن مـاه بهـراذان، في نحـو ثمانمائـة فأقبـل نحـو المدائـن، فكتـب دقهـان بابـل مهـروز، إلى الحجـاج يخـبره بذلـك، فقـام الحجـاج ي أهـل الكوفـة، يدعوهـم إلى المدافعـة عـن بلادهـم وعـن فيئهـم،وإلا بعـث إلى أهـل الشـام ليقومـوا مقامهـم، فوعـده النـاس مـن كل جانـب بالقتـال والعمـل بمـا يـسره، وقـام إليـه زهـرة بـن حويـة، وهـو شـيخ كبـير لا يقـدر عـلى القيـام إلا إذا أخـذ بيـده، فأشـار عليـه باسـتنفار النـاس جميعهـم إلى الخـوارج تحـت أمـره رجـل تشـجاع مجـرب للحـرب. فرغـب إليـه الحجـاج أن يكـون هـو أمـير العسـكر، ف اعتـذر بأنـه شـيخ هـرم ضعيـف البـدن ضعيـف البـصر، وإنمـا

يصلـح لهـذا رجـل يحمـل الرمـح والـدرع ويهـزم السـيف ويثبـت عـلى مـتن الفـرس، وتطـوع عـلى أن يكـون مـع الأمـير في عسـكره يشـير عليـه برأيـه، فجـزاه الحجـاج خـيراً عـلى نصحـه وصدقـه، ثـم أمـر النـاس بالمسـير فسـاروا ولا يـدرون مـن أميرهـم.

وكتـب الحجـاج إلى عبـد الملـك بـن مـروان أن شـبيبًا شـارف المدائـن، وإنمـا يريـد الكوفـة، وقـد عجـز أهلهـا عـن قتالـه في مواطـن كثـيرة، ورغـب إليـه في أن يبعـث إليـه جنـدًا مـن أهـل الشـام، فأرسـل إليـه سـفيان بـن الأبـرد في أربعـة آلاف وحبيـب ابـن عبـد الكريـم الحكمـي المذحجـي في ألفـين، فسـار أهـل الشـام حتـى دخلـوا الكوفـة، مـن طريـق مختـصر أرشـد إليـه الحجـاج، وأرسـل الحجـاج إلى عتـاب بن ورقـاء، فجاء إليـه عتاب فجعله أمـيرًا عـلى جيـش أهـل الكوفـة، فخـرج بهـم وعسـكر بحـمام أعـين، وأقبـل شـبيب، فقطـع دجلـة، ونـزل بمدينـة بهرسـير، وصـار بينـه وبـين مطـرف بـن المغـيرة بن شـعبة جسر دجلة فقطعـه. طـرف وأرسـل إلى شـبيب أن يرسـل إليـه بعـض وجـوه أصحـاب ليدرسـهم القـرآن وينظـر في رأيهـم، فأرسـل إليـه شـبيب رجـالاً منهـم قعنـب وسـويد والمحلـل، فمكثـوا عنـد مطـرف أربعـة أيـام دون أن يتفقـوا عـلى شـيئ. فلـما تبـين لشـبيب أن مطرفًـا غـير تابعـة، تهيـأ للمسـير إلى عتـاب وأهـل الشـام، وخـاف مطـرف أن يبلـغ الحجـاج مـا كان منـه مـع شـبيب فينتقـم منـه فخـرج إلى المدائـن، مـع أصحابـه وسـار شـبيب مـع أصحابـه إلى عتـاب بسـوق حكمـة. وكانـوا نحـوًا مـن ألـف تخلـف منهـم أربعمائـة. وكان مـع عتـاب نحـو مـن خمسـين ألفًـا ونشـب القتـال بـين الخـوارج وجيـش عتـاب فهـزم جيـش عتـاب.

وكان عتـاب جالسًـا في قلـب الجيـش مـع زهـرة بـن حويـة إذ غشـيهم شـبيب فقـال عتـاب لزهـرة: هـذا يـوم كـثر فيـه العـدد وقـل الغنـاء.

فقال زهرة: ابشر فأني أرجو أن يكون الله قد أهدى إلينا الشهادة عند فناءأعمارنا.

فلـما دنـا منـه شـبيب وثـب في عصابـة قليلـة صبرت معـه، وقاتـل قتـالاً شـديدًا حتـى قُتِـل، وقتـل معـه زهـرة بـن حويـة، واسـتمكن شـبيب مـن أهـل العسـكر وأمـر أصحابـه برفـع السـيف عنهـم، ودعاهـم إلى البيعـة، فبايعـه النـاس، ولكنهـم هربـوا مـن تحـت ليلتهـم، ثـم أقبـل شـبيب إلى الكوفـة وقـد دخلهـا سـفيان بـن الأبـرد بأهـل الشـام، فاشـتد الحجـاج بهـم واسـتغنى عـن أهـل الكوفـة وقـال لهـم: "يـا أهـل الكوفـة لا أعـز

الله مـن أراد بكـم العـز ولا نـصر مـن أراد بكـم النـصر"، وانتهـى شـبيب حتـى نـزل موضـع حـمام أعـين، فدعـا الحجـاج الحـارث بـن معاويـة بـن أبي زرعـة الثقفـي فوجهه في نـاس مـن الـشروط لم يشـهدوا يـوم عتـاب، ومعهـم نحـو مائتـين مـن أهـل الشـام، فبلـغ عـدد الجميـع نحـو ألـف مقاتـل. فالتقـوا بشـبيب في زرارة، فحمـل عليهـم فهزمهـم وقتل رئيسـهم الحـارث، وأقبـل إلى الكوفـة، ونـزل بالسـبخة وابتنـى بهـا مسـجدًا. وأمـر الحجـاج أهـل الكوفـة، بالأخـذ بأفواههـا وصـار يخـرج إلى شـبيب جماعـة بعـد أخـرى، وعـلى كل جماعـة أحـد غلمانـه في ثيـاب فاخـرة وخيـل فارهـة، وشـبيب يظنـه الحجـاج فيقتلـه ويقـول: 'إن كان هـذا الحجـاج فقـد أرحتكـم منـه.

ودخـل حينئـذ الكوفـة ومعـه امرأتـه غزالـة، وكانـت نـذرت أن تصـلي في مسـجد الكوفـة ركعتـين تقـرأ فيهـا البقـرة وآل عمـران ففعلـت.

الحجاج يقاتل شبيبًا

فلـما رأى الحجـاج ذلـك نـزل إليـه بنفسـه في أهـل الشـام وهـو عـلى بغـل محجل تبـاشر بـه وقـال: هـذا اليـوم أغـر محجـل. وكان شـبيب في سـتمائة فـارس، فأقبـل عليـه شـبيب يقاتلـه، ودعـا الحجـاج بكـرسي وجلـس عليـه وحـث أهـل الشـام عـلى صـدق القتـال. فاسـتقبلوا القـوم بأطـراف الأسـنة، وجثـوا عـلى الركـب وأشرعـوا الرمـاح، وثبتـوا لأصحـاب شـبيب، وصـاروا يطعنونهـم قدُمًـا، وصـار الحجـاج يقـدم كرسـيه شـيئًا فشـيئًا، وهـو يحـرض أهـل الشـام عـلى القتـال. وصـار شـبيب يسـتحث أصحابـه ويحرضهـم عـلى الصـبر. واقتتـل الفريقـان اقتتـالاً شـديدًا وأهـل الشـام يدفعـون أصحـاب شـبيب إلى أن انتهـوا إلى المسـجد الـذي ابتنـاه. فقـال الحجـاج: يـا أهـل الشـام، يـا أهـل السـمع والطاعـة، هـذا أول الفتـح، والـذي نفـس الحجـاج بيـده. وحمـل خالـد بـن عتـاب بـن ورقـاء عـلى شـبيب وأصحابـه مـن وراءه حملـة موتـور حـران، فقتـل مصـادًا أخـا شـبيب وقتلـت في هـذه الوقعـة غزالـة امرأتـه، وانهـزم شـبيب ومـن بقـي معـه مـن أصحابـه، فأمـر الحجـاج داخـل بـن عتـاب باتباعهـم فأتبعهـم، حتـى قطعـوا جـسر المدائـن، فدخلـوا ديـرًا هنـاك فحصرهـم خالـد فيـه، فخرجـوا عليـه فهزمـوه ومـن معـه نحـوًا مـن فرسـخين حتـى ألقـوا بأنفهـم وخيلهـم في دجلـة، وألقـى خالـد بنفسـه وفرسـه.

فنظره شبيب فقال: قاتله الله فارسًا وفرسه. هذا أشد الناس وفرسه أقوى فرس.

فقيل له: هذا خالد بن عتاب.

فقال: معرق في الشجاعة والله لو علمت لأقحمت خلفه ولو دخل النار.

مقتل شبيب

ثـم دعـا الحجـاج حبيـب بـن عبـد الرحمـن الحكمـي وبعثـه في أثـر شـبيب في ثلاثة آلاف مـن أهـل الشـام وقـال له:

احذر بياته وحيثما لقيته فنازله، فإن الله قد فل حده وقصم نابه.

فسـار وراءه حتـى بلـغ الأنبـار، وهنـاك بيتهـم شـبيب فوجدهـم حذريـن، فقاتلهـم هـو وأصحابـه – وكانـوا ثلاثـين – قتـالاً شـديدًا جـدًا حتـى قـال بعـض أصحـاب حبيـب: لـو كان هـؤلاء الخـوارج يزيـدون عـلى مائـة رجـل لأهلكونـا، فلـما يئس شـبيب وأصحابـه مـن القـوم انصرفـوا عنهـم ومضـوا حتـى قطعـوا دجلـة إلى الأهـواز، ثـم إلى فـارس ثـم ارتفعـوا إلى كرمـان، فأمـر الحجـاج سـفيان بـن الأبـرد أن يسـير إليـه، فلحقـه بجـسر دجيـل الأهـواز وانضـم إليـه زيـاد بـن عمـرو العتـكي في أربعـة آلاف. فقاتلهـم شـبيب وأصحابـه أشـد قتـال قاتلـه قـوم. فلـما أتى عليهـم المسـاء أمـر شـبيب أصحابـه أن يعـبروا النهـر حتـى إذا أصبحـوا باكروهـم. فعـبروا أمامـه وتخلـف في أواخرهـم، فأقبـل عـلى فرسـه فنـزا فرسـه عـلى فـرس كانـت أمامـه، فوقـع حافـره عـلى حـرف السـفينة، فسـقط في المـاء وشـقط معـه شـبيب وهـو مثقـل بالحديـد مـن درع ومغفـر وغيرهـما، فغـرق وقـال لـه بعـض أصحابـه وهـو يغـرق: أغرقـاً يـا أمـير المؤمنـين؟

قـال: ذلـك تقديـر العزيـز العليـم. فلـما رأى أصحـاب شـبيب غـرق أميرهـم انصرفـوا وتركـوا معسـكرهم ليـس فيـه أ حـد.

ولمـا أصبـح سـفيان وبلغـه غـرق شـبيب وانـصراف أصحـاب كـبر وكـبر أصحابـه معـه، وطلبـوا شـبيبًا واسـتخرجوه مـن النهـر، وشـقوا بطنـه وأخرجـوا قلبـه فـرأوه مجتمعًـا صلبًـا كأنـه صخـرة، وكان يـضرب بـه الأرض فينـزو نحـو قامـة إنسـان. فشـقوه فـرأوا في داخلـه قلبًـا صغـيرًا كالكـرة، فشـقوه فأصابـوا علقـة الـدم في داخلـه. وكان غرقـه في سـنة ٧٧ أو في سـنة ٧٨ عـلى اختـلاف الروايـة.